معارك إسلامية

قصص وبطولات للفتيان

تأليف

شهاب سلطان

رسوم

عبد الرحمن بكر

الدار النموذجية للطباعة والنشر

صيدا - بيروت

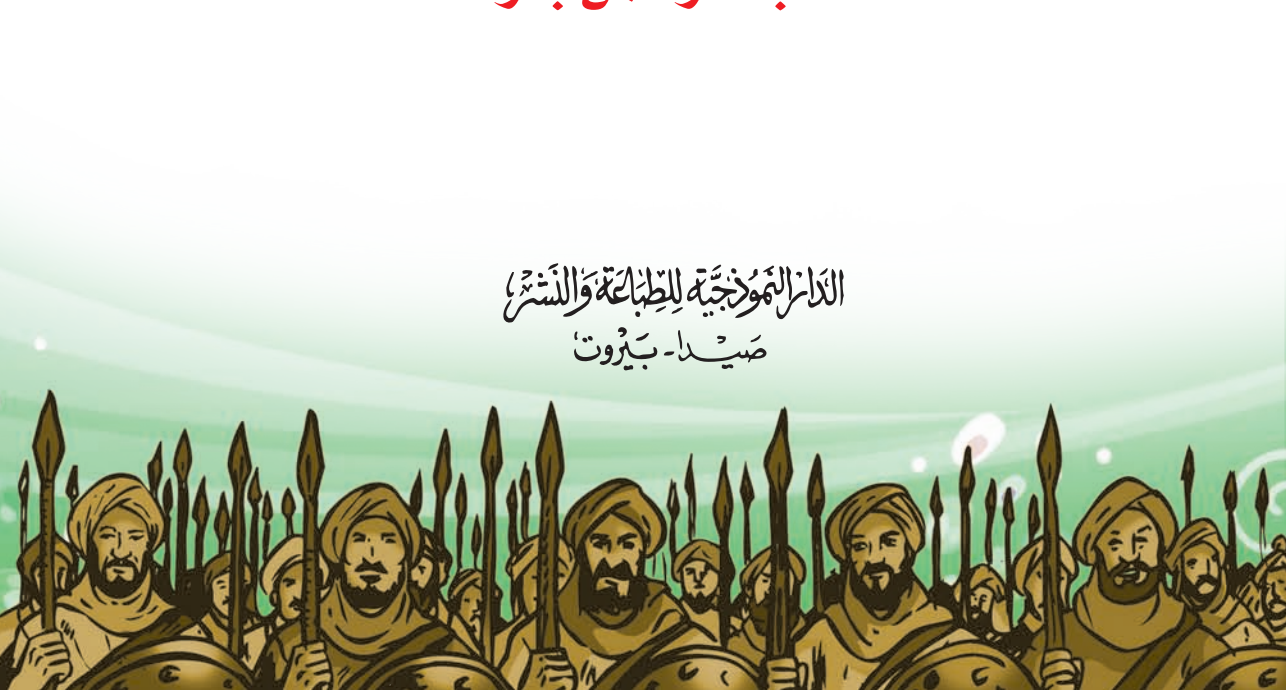

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
07 230195 - 00961 7 230841
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2016 م - 1437 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

alassrya@terra.net.lb
E. Mail: alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المحتويات

غَزْوَةُ بَدْرٍ 4

غَزْوَةُ أُحُدٍ 13

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ 25

غَزْوَةُ مُؤْتَةَ 38

فَتْحُ مَكَّةَ 48

مَعْرَكَةُ الْيَمَامَةِ 60

مَعْرَكَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ 70

مَعْرَكَةُ الْأُبُلَّةِ 78

مَعْرَكَةُ الْمَذَارِ 82

مَعْرَكَةُ الْوَلَجَةِ 86

مَعْرَكَةُ أُلَيْسَ 91

مَعْرَكَةُ الْمَقَرِّ 96

مَعْرَكَةُ الْحِيرَةِ 99

مَعْرَكَةُ الأَنْبَارِ 104

مَعْرَكَةُ عَيْنِ التَّمْرِ 108

مَعْرَكَةُ دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ 112

مَعْرَكَةُ الْجِسْرِ 116

مَعْرَكَةُ الْبُوَيْبِ 121

أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ 126

غَزْوَةُ بَدْرٍ

حِينَ اضْطُرَّ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ إِلَى الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَرَبًا بِدِينِهِ مِنْ عِنَادِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَرَاءَهُمْ، وَرَضُوا أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ فُقَرَاءَ بَعِيدًا عَنْ إِيذَاءِ الكُفَّارِ لَهُمْ. لَكِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ، فَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ الأَنْصَارِ أَنْ يَقْسِمُوا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ فَأَطَاعُوا.

نَهَبَ الْمُشْرِكُونَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ.. وَضَمُّوهَا إِلَى أَمْوَالِهِمُ الَّتِي يُتَاجِرُونَ بِهَا فِي قَوَافِلَ تَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ، تَبِيعُ وَتَشْتَرِي، وَتَعُودُ إِلَى مَكَّةَ بِبَضَائِعَ جَدِيدَةٍ. فَيَرْبَحُونَ مِنْ وَرَائِهَا أَمْوَالًا كَثِيرَةً.

وَذَاتَ يَوْمٍ فَكَّرَ الرَّسُولُ ﷺ فِي اسْتِعَادَةِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي نَهَبَهُ الْكُفَّارُ. وَكَانَ طَرِيقُ الْقَوَافِلِ بَيْنَ الشَّامِ وَمَكَّةَ، يَمُرُّ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ يُقِيمُ الرَّسُولُ ﷺ وَالأَنْصَارُ وَالمُهَاجِرُونَ، فَأَرْسَلَ الصَّحَابَةَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي مَجْمُوعَاتٍ إِلَى طَرِيقِ قَوَافِلِ قُرَيْشٍ الذَّاهِبَةِ إِلَى مَكَّةَ أَوِ الْعَائِدَةِ إِلَيْهَا مِنَ الشَّامِ؛ لِيَهْجُمُوا عَلَيْهَا وَيَأْخُذُوا مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ جِمَالِهَا الْمُحَمَّلَةِ بِالْبَضَائِعِ، لَكِنَّ الْقَوَافِلَ كَانَتْ تَنْجُو مِنْهُمْ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يَصِلُونَ إِلَى الطَّرِيقِ بَعْدَ مُرُورِهَا بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ مِنْ شَعْبَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.. جَاءَتِ

الأَخْبَارُ إِلَى الرَّسُــولِ الْكَرِيمِ ﷺ تُخْبِرُهُ بِأَنَّ أَبَا سُــفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ عَائِدٌ مِنَ الشَّامِ بِقَافِلَةٍ مِنْ أَلْفِ جَمَلٍ مُحَمَّلَةٍ بِالْبَضَائِعِ، وَلَا يَحْرُسُهَا أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا.

قَرَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّــلَامُ أَلَّا يَتْرُكَ هَذِهِ الْقَافِلَةَ تَعُــودُ إِلَى مَكَّةَ؛ فَأَلْفُ جَمَلٍ مُحَمَّلَةٌ بِالْبَضَائِعِ تَعْنِي ثَرْوَةً كَبِيرَةً، لَابُدَّ أَنْ يَعْتَرِضُوا طَرِيقَهَا وَيَأْخُذُوهَا بَدَلًا مِنْ مَالِ الْمُهَاجِـرِينَ الَّذِي نَهَبَهُ الْكُفَّارُ.

وَلَمَّا أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِرَغْبَتِهِ، الْتَفَّ حَوْلَهُ ثَلَاثُمِئَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.. كُلُّهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْقِتَالِ.

وَفِي الثَّالِثِ مِنْ رَمَضَانَ كَانَ الرِّجَالُ قَدِ اسْتَعَدُّوا بِدُرُوعِهِمْ وَسُيُوفِهِمْ وَنِبَالِهِمْ، وَانْطَلَقُوا إِلَى طَرِيقِ الْقَوَافِلِ لاعْتِرَاضِ قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ الْقَادِمَةِ مِنَ الشَّامِ.

عَلِمَ أَبُو سُــفْيَانَ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي انْتِظَارِهِ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ لَوْ ظَلَّ فِي طَرِيقِهِ سَيَلْتَقِي بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ سَيُقَاتِلُونَهُ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَيْهِ وَيَأْخُذُونَ مَا مَعَهُ مِنْ إِبِلٍ وَأَمْوَالٍ وَبَضَائِعَ، فَأَرْسَــلَ فَارِسًا اسْمُهُ ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ إِلَى قُرَيْشٍ يَسْتَنْجِدُ بِهِمْ وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ نَجْدَتَهُ.

لَمْ يَنْتَظِرْ أَبُو سُــفْيَانَ أَنْ تَأْتِيَهُ نَجْدَةُ قُرَيْشٍ، وَخَافَ أَنْ يَسِــيرَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، فَغَيَّرَ طَرِيقَ قَافِلَتِهِ وَسَــارَ بِهَا فِي طَرِيقٍ بَعِيدٍ عَنِ الطَّرِيقِ الْمَعْرُوفِ، وَبَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ أَنَّهُ ضَلَّلَ الْمُسْــلِمِينَ وَأَنَّهُ قَدْ فَرَّ بِقَافِلَتِهِ بَعِيدًا عَنْهُمْ، أَرْسَــلَ رَسُــولًا ثَانِيًا يُخْبِرُ الْقُرَشِــيِّينَ بِأَنَّ الْقَافِلَةَ قَدْ نَجَتْ وَلَا حَاجَةَ لَهُمْ لِلْخُرُوجِ لِقِتَالِ الْمُسْــلِمِينَ، لَكِنَّ ضَمْضَمًا كَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى مَكَّةَ أَوَّلًا.. وَأَخْبَرَ الْمُشْــرِكِينَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ

يَعْتَرِضُونَ طَرِيقَ قَافِلَتِهِمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَهُبُّوا لِنَجْدَةِ أَمْوَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ.

ثَارَ الْمُشْرِكُونَ ثَوْرَةً كَبِيرَةً، وَأَرْسَلَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَدَدًا مِنْ مُقَاتِلِيهَا الأَشِدَّاءِ، وَعَدَدًا مِنْ جِمَالِهَا وَعَبِيدِهَا حَتَّى تَجَمَّعَ أَلْفٌ وَثَلَاثُمِئَةِ مُقَاتِلٍ، وَسَارُوا جَمِيعًا تَحْتَ قِيَادَةِ أَبِي جَهْلٍ فِي اتِّجَاهِ آبَارِ بَدْرٍ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ دِفَاعًا عَنْ أَمْوَالِهِمْ. وَفِي الطَّرِيقِ قَابَلَهُمُ الرَّسُولُ الثَّانِي لأَبِي سُفْيَانَ وَبَشَّرَهُمْ بِنَجَاةِ الْقَافِلَةِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى مَكَّةَ فَهُمُ الآنَ لَيْسُوا فِي حَاجَةٍ لِلْقِتَالِ.

عَادَ مُقَاتِلُو بَنِي زُهْرَةَ إِلَى مَكَّةَ، لَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ رَفَضَ الرُّجُوعَ وَوَاصَلَ قِيَادَةَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى بَدْرٍ، وَهُوَ يَتَمَنَّى قِتَالَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، مُتَوَهِّمًا أَنَّهُ سَيَتَمَكَّنُ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ.

عَرَفَ الْمُسْلِمُونَ بِهُرُوبِ قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ مِنْهُمْ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهِمْ أَخْبَارُ قُدُومِ جَيْشِ قُرَيْشٍ لِقِتَالِهِمْ، فَتَوَقَّفُوا لِلتَّشَاوُرِ فِيمَا يَفْعَلُونَ.

تَنَاقَشَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ؛ لَقَدْ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ يَقْصِدُونَ قَطْعَ طَرِيقِ الْقَافِلَةِ وَالسَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا وَقِيَادَتَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالآنَ وَقَدْ هَرَبَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْقَافِلَةِ، وَجَيْشُ قُرَيْشٍ قَادِمٌ لِقِتَالِهِمْ وَهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ بُيُوتِهِمْ لِلْقِتَالِ وَلَمْ يَسْتَعِدُّوا لَهُ. فَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ؟

أَرْسَلَ اللهُ جِبْرِيلَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يُبَشِّرُهُ بِالنَّصْرِ عَلَى الْكُفَّارِ، فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِالْوَحْيِ الَّذِي جَاءَهُ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَكْرَهُ الْقِتَالَ وَيَخَافُ مِنْهُ، وَأَنَّهُمْ

جَمِيعًا لَمْ يَسْتَعِدُّوا لَهُ، لَكِنَّهُمْ أَعْلَنُوا طَاعَتَهُمْ لله وَالرَّسُولِ وَمَا يَأْمُرَانِ بِهِ، وَأَكَّدُوا أَنَّهُمْ عَازِمُونَ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى يَفُوزُوا بِالنَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ.

فَرِحَ الرَّسُولُ ﷺ بِمَوْقِفِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ يَرَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ صَرْعَى تَحْتَ سُيُوفِهِمْ، فَهَبُّوا جَمِيعًا لِمُوَاصَلَةِ سَيْرِهِمْ لِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَالإِحْسَاسُ بِالنَّصْرِ يَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ.

وفِي السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَصَلُوا إِلَى مَكَانٍ اسْمُهُ الْعُدْوَةُ الدُّنْيَا فِي بَدْرٍ، وَحَطُّوا رِحَالَهُمْ عِنْدَهَا، وَقَبْلَ أَنْ يُرِيحُوا جِمَالَهُمْ وَيَضَعُوا أَحْمَالَهُمْ، تَقَدَّمَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ مِنَ الرَّسُولِ الْقَائِدِ وَقَالَ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ وُقُوفُنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ أَمْرٌ مِنَ اللهِ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُغَيِّرَهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟

أَجَابَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَقَالَ:

- بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ.

صَارَ مِنْ حَقِّ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ أَنْ يَقُولَ رَأْيَهُ، فَاخْتِيَارُ الْمَكَانِ لَيْسَ أَمْرًا مِنَ اللهِ وَجَبَ تَنْفِيذُهُ، لَكِنَّهُ خُطَّةُ حَرْبٍ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَتَغَيَّرَ، فَقَالَ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْمَكَانُ لَيْسَ مُنَاسِبًا لِلْقِتَالِ، وَأَرَى أَنْ تَقُومَ وَتَقُودَ النَّاسَ حَتَّى نَأْتِيَ أَقْرَبَ بِئْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَنُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَبْنِيَ عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَأَهُ بِالْمَاءِ، وَنَرْدِمَ الآبَارَ الأُخْرَى، وَحِينَ نُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ نَشْرَبُ نَحْنُ وَهُمْ لَا يَشْرَبُونَ.

فَكَّرَ الرَّسُولُ ﷺ فِيمَا قَالَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، فَوَجَدَهُ عَلَى حَقٍّ فَقَالَ لَهُ:

- قَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ.

سَارَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى صَارُوا حَوْلَ أَقْرَبِ بِئْرٍ لِجَيْشِ الْمُشْرِكِينَ، فَحَطُّوا أَحْمَالَهُمْ وَرَبَطُوا جِمَالَهُمْ، وَنَصَبُوا خِيَامَهُمْ، وَرَدَمُوا كُلَّ الآبَارِ، وَجَلَسُوا حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ يَضَعُونَ خُطَّةَ الْقِتَالِ.

بَعَثَ الرَّسُولُ ﷺ بِعَلِيٍّ وَسَعْدٍ وَالزُّبَيْرِ يَتَسَلَّلُونَ فِي الظَّلَامِ، وَيَقْتَرِبُونَ مِنْ مُعَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ يَنْظُرُونَ أَخْبَارَهُمْ، فَقَابَلُوا غُلَامَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِمْ قَدْ خَرَجَا يُحْضِرَانِ لَهُمُ الْمَاءَ، فَأَخَذُوهُمَا لِلرَّسُولِ ﷺ.

سَأَلَ الرَّسُولُ ﷺ الْغُلَامَيْنِ وَقَالَ لَهُمَا:

- أَخْبِرَانِي.. أَيْنَ قُرَيْشٌ؟

أَشَارَ الْغُلَامَانِ إِلَى تَلٍّ قَرِيبٍ، وَقَالَا:

- خَلْفَ هَذَا التَّلِّ الَّذِي بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى.

سَأَلَهُمَا الرَّسُولُ ﷺ ثَانِيَةً عَنْ أَعْدَادِ الْمُشْرِكِينَ، لَكِنَّ الْغُلَامَيْنِ لَا يَعْرِفَانِ كَمْ عَدَدُهُمْ، فَسَأَلَهُمْ ﷺ عَنْ عَدَدِ الْجِمَالِ الَّتِي يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَا:

- يَنْحَرُونَ يَوْمًا تِسْعَةَ جِمَالٍ وَيَوْمًا عَشَرَةً.

نَظَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ عَدَدَ الْمُشْرِكِينَ مَا بَيْنَ التِّسْعِمِئَةِ وَالأَلْفِ، ثُمَّ عَادَ يَسْأَلُ الْغُلَامَيْنِ عَنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ هَلْ جَاءُوا لِلْقِتَالِ، فَأَخْبَرَاهُ بِأَسْمَاءِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْهُمْ. فَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُمْ:

- هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَرْسَلَتْ لَكُمْ فِلْذَاتِ أَكْبَادِهَا.

صَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ الْغُلَامَيْنِ، ثُمَّ تَشَاوَرَ مَعَ أَصْحَابِهِ ثَانِيَةً، وَأَخِيرًا دَخَلَ الْجَمِيعُ إِلَى خِيَامِهِمْ وَنَامُوا وَقُلُوبُهُمْ هَادِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ.

قَبْلَ شُرُوقِ شَمْسِ الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، كَانَ الْمُسْلِمُونَ خَارِجَ خِيَامِهِمْ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَلْبَسُ دِرْعَهُ وَيُمْسِكُ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَحْمِلُ قَوْسَهُ وَنِبَالَهُ وَعَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْقِتَالِ. صَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ لَهُمْ:

- قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ.

تَسَابَقَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَيْدَانِ الْقِتَالِ.. اخْتَارَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ مَوَاقِعَهُمْ، أَوْقَفَهُمْ فِي صُفُوفٍ بِحَيْثُ تَكُونُ الشَّمْسُ فِي ظُهُورِهِمْ. وَوَقَفُوا فِي انْتِظَارِ أَنْ يَأْتِيَ أَبُو جَهْلٍ بِجَيْشِ الْمُشْرِكِينَ.

كَانَ أَبُو جَهْلٍ مَا زَالَ يَبُثُّ رُوحَ الْقِتَالِ فِي نُفُوسِ مُقَاتِلِيهِ، وَأَخِيرًا تَوَجَّهَ بِالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ وَهُوَ الْمُشْرِكُ بِهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ يَنْصُرَ مَنْ يُحِبُّهُ وَيَرْضَى عَنْهُ! مُتَوَهِّمًا أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُمْ وَرَاضٍ عَنْهُمْ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ وَرِضَاهُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ.

لَمْ يَعْرِفْ أَبُو جَهْلٍ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ مُحَمَّدًا ﷺ وَيَرْضَى عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى الأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ وَالْبِحَارِ، وَقَادَ جَيْشَهُ إِلَى مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَنَّ اللهَ سَيَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُ وَسَيَنْصُرُ مَنْ يُحِبُّهُ.

وَالْتَقَى الْجَيْشَانِ، وَخَرَجَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَوَلَدُهُ الْوَلِيدُ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ يُطَالِبُونَ مَنْ يُبَارِزُهُمْ.

أَشَارَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَخَرَجُوا لَهُمْ، فَسَأَلُوهُمْ وَقَالُوا لَهُمْ:

- مَنْ أَنْتُمْ؟

أَجَابَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا:

- مِنَ الأَنْصَارِ.

رَدَّ الْمُشْرِكُونَ وَقَالُوا:

- مَا لَنَا بِكُمْ حَاجَةٌ.

لَمْ يَقْبَلِ الْمُشْرِكُونَ نِزَالَ الأَنْصَارِ، وَصَاحُوا يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مُقَاتِلِينَ مِنْ أَهْلِهِمْ. فَأَشَارَ الرَّسُولُ الْقَائِدُ ﷺ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ وَحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَخَرَجُوا لَهُمْ مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ.

وَبَدَأَتِ الْمُبَارَزَةُ؛ بَارَزَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَقَتَلَهُ. وَبَارَزَ عَلِيٌّ الْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ، وَقَتَلَهُ.

وَاسْتَمَرَّ النِّزَالُ بَيْنَ عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ حَتَّى جَرَحَ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى قَتْلِهِ، فَهَجَمَ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ عَلَى عُتْبَةَ فَقَتَلَاهُ، ثُمَّ حَمَلَا عُبَيْدَةَ وَخَرَجَا بِهِ مِنَ الْمَيْدَانِ وَقَدْ قُطِعَتْ رِجْلُهُ.

وَلَمَّا أَتَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، سَأَلَهُ عُبَيْدَةُ وَقَالَ لَهُ:

- أَلَسْتُ شَهِيدًا يَا رَسُولَ اللهِ؟

أَجَابَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- بَلَى.. شَهِيدٌ.

وَالْتَحَمَ الْجَيْشَانِ، وَأَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَأَلْقَى هُوَ سُبْحَانَهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَارْتَفَعَ الْغُبَارُ وَصَيْحَاتُ الرِّجَالِ وَصَهِيلُ الْخُيُولِ

وَرُغَاءُ الْجِمَالِ وَصَلِيلُ السُّيُوفِ وَطَرْقَعَاتُ الدُّرُوعِ.. وَكَلِمَاتٌ مِنْ قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ تَعْلُو فَوْقَ كُلِّ هَذَا وَتَصِلُ إِلَى قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ تَسْرِي فِي أَوْصَالِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ قُوَّةً وَشَجَاعَةً، فَتَنْغَرِسُ السُّيُوفُ فِي رِقَابِ الْمُشْرِكِينَ وَقُلُوبِهِمْ وَأَكْبَادِهِمْ وَتَتَهَاوَى أَجْسَادُهُمْ أَرْضًا، وَتُسَاقُ أَرْوَاحُهُمُ الْفَاجِرَةُ إِلَى حَيْثُ الْعَذَابِ.

تَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ سَبْعِينَ مُشْرِكًا، وَهَرَبَ الْبَاقُونَ مِنْ أَمَامِهِمْ، فَأَسْرَعُوا خَلْفَهُمْ يَأْسِرُونَ مَنْ يُمْسِكُونَ بِهِ حَتَّى صَارَ عَدَدُ الأَسْرَى سَبْعِينَ مُشْرِكًا، وَهَرَبَ الآخَرُونَ تَارِكِينَ عُدَّتَهُمْ وَعَتَادَهُمْ غَنِيمَةً فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

رَاحَ الْمُسْلِمُونَ يُحْصُونَ عَدَدَ الشُّهَدَاءِ مِنْهُمْ.. وَالْقَتْلَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَكَانَ مِنَ الشُّهَدَاءِ سِتَّةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَطْ. أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَكَانَ قَتْلَاهُمْ سَبْعِينَ مُقَاتِلًا. فَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَنْ يَدْفِنُوا الشُّهَدَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَجْمَعُوا جُثَثَ الْمُشْرِكِينَ وَيُلْقُوا بِهَا فِي أَحَدِ الآبَارِ.

وَبَيْنَمَا الصَّحَابَةُ يُنَفِّذُونَ الأَمْرَ، بَعْضُهُمْ يَحْفِرُ قُبُورًا لِلشُّهَدَاءِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْقُلُ جُثَثَ الْكُفَّارِ إِلَى الْبِئْرِ، لَاحَظَ الرَّسُولُ ﷺ بَعْضَ الْحُزْنِ عَلَى وَجْهِ حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ حُزْنِهِ، فَأَجَابَهُ حُذَيْفَةُ قَائِلًا:

- رَأَيْتُ جُثَّةَ وَالِدِي وَهُمْ يُلْقُونَ بِهَا فِي الْبِئْرِ، وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَلَّا يَمُوتَ كَافِرًا.

طَيَّبَ الرَّسُولُ ﷺ خَاطِرَ حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ، وَدَعَا لَهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ ذَلِكَ خَيْرَ مُكَافَأَةٍ يَنَالُهَا مُسْلِمٌ عَنْ مَقْتَلِ وَالِدِهِ الَّذِي مَاتَ كَافِرًا.

وَانْتَهَى الْمُسْلِمُونَ مِمَّا أَمَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَرَاحُوا جَمِيعًا لِجَمْعِ الْغَنَائِمِ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، وَإِحْضَارِهَا بَيْنَ يَدَيِ الرَّسُولِ ﷺ فَكَانَتْ خَيْرًا عَظِيمًا.

ظَلَّ الرَّسُولُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ بِبَدْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَظَلَّ الرِّجَالُ عَلَى أَتَمِّ الاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ؛ تَحَسُّبًا لِعَوْدَةِ الْكُفَّارِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَلَمْ يَعُدِ الْكُفَّارُ، فَقَرَّرَ الْمُسْلِمُونَ الْعَوْدَةَ بِغَنَائِمِهِمْ وَأَسْرَاهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ.

فِي الْمَدِينَةِ.. تَنَازَعَ النَّاسُ حَوْلَ غَنَائِمِ حَرْبِ بَدْرٍ وَمَنْ يَكُونُ أَحَقَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ، أَرْسَلَ اللهُ آيَاتٍ مِنْ عِنْدِهِ حَمَلَهَا جِبْرِيلُ إِلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ يُعَاتِبُ فِيهَا الْمُسْلِمِينَ عَلَى نِزَاعِهِمْ، وَأَعْطَى أَمْرَ تَوْزِيعِ الْغَنَائِمِ إِلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ، فَأَعْطَى أُسَرَ الشُّهَدَاءِ الأَرْبَعَةَ عَشَرَ جُزْءًا مِنْهَا، وَكَذَلِكَ الصَّحَابَةَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوَةِ بِعُذْرٍ، وَالْبَاقِي قَسَّمَهُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ قَاتَلُوا بِالتَّسَاوِي.

وَتَشَاوَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي أَمْرِ الأَسْرَى السَّبْعِينَ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ، مَاذَا يَفْعَلُونَ بِهِمْ؟ فَرَأَوْا جَمِيعًا أَنْ يُفْدَى كُلُّ أَسِيرٍ بِالْمَالِ.

دَفَعَ أَهْلُ كُلِّ أَسِيرٍ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَافْتَدَوْهُ وَأَطْلَقُوهُ، أَمَّا مَنْ لَيْسَ لَدَى أَهْلِهِ مَالٌ يَدْفَعُونَهُ، فَقَدْ أَعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ عَشَرَةً مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ يُعَلِّمُهُمُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَالِهِ.

وَهَكَذَا.. جَعَلَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْمُسْلِمِينَ يُوقِنُونَ بِأَنَّ النَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ لَيْسَ بِالْعَدَدِ وَلَا بِالْعَتَادِ، لَكِنْ بِالإِيمَانِ بِالنَّصْرِ وَالإِصْرَارِ عَلَى الشَّهَادَةِ.

غَزْوَةُ أُحُدٍ

عَاشَ الْقُرَشِيُّونَ ذُلَّ هَزِيمَتِهِمْ فِي بَدْرٍ وَذُلَّ الأَسْرِ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَمْ تَجِفَّ دُمُوعُهُمْ عَلَى أَشْرَافِهِمْ وَأَبْطَالِهِمُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي الْمَعْرَكَةِ، فَقَرَّرُوا أَنْ يَقُومُوا بِحَرْبٍ شَامِلَةٍ ضِدَّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. وَخِلَالَ عَامٍ وَاحِدٍ اسْتَطَاعَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يَجْمَعَ جَيْشًا مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ كُلِّ الْقَبَائِلِ، غَيْرَ آلَافِ الْجِمَالِ الْمُحَمَّلَةِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

وَتَحَرَّكَ جَيْشُ الْمُشْرِكِينَ نَحْوَ الْمَدِينَةِ، تُصَاحِبُهُ سَبْعَ عَشْرَةَ امْرَأَةً تَقُودُهُنَّ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ، يَضْرِبْنَ الدُّفُوفَ وَالطُّبُولَ، وَيُنْشِدْنَ الأَنَاشِيدَ الَّتِي تُحَرِّضُ الرِّجَالَ عَلَى الثَّأْرِ لِقَتْلَى يَوْمِ بَدْرٍ.

وَصَلَتِ الأَخْبَارُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ يَجْلِسُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ، أَسْرَعَ يُشَاوِرُ قَادَةَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَقَرَّرُوا الاسْتِعْدَادَ لِلْحَرْبِ، حَمَلَ الْمُقَاتِلُونَ سِلَاحَهُمْ وَهُمْ فَرِحُونَ بِهِ. قَسَّمَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ، بَعْضُهَا يَحْرُسُ مَدَاخِلَ الْمَدِينَةِ، وَبَعْضُهَا يَخْرُجُ إِلَى الطُّرُقَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَسِيرَ فِيهَا جَيْشُ الْمُشْرِكِينَ؛ لِيُرَاقِبُوا تَحَرُّكَاتِهِ وَيَأْتُوا بِمَعْلُومَاتٍ عَنْهُ.

ظَلَّ الرِّجَالُ يُرْسِلُونَ أَخْبَارَ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَحِينَ جَاءَ السَّادِسُ مِنْ شَوَّالٍ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، عَسْكَرَ الْمُشْرِكُونَ

بِجِوَارِ جَبَلِ أُحُدٍ. رَصَدَتْهُمْ عُيُونُ الْمُسْلِمِينَ، وَعَادُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يَحْمِلُونَ آخِرَ أَخْبَارِهِمْ.

تَحَرَّكَ أَلْفُ مُقَاتِلٍ مُسْلِمٍ فِي طَرِيقِهِمْ لِلنَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ، وَإِنْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ الشَّهَادَةَ، وَحِينَ وَصَلَ الْجَيْشُ إِلَى مَكَانٍ اسْمُهُ ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ رَأَى الرَّسُولُ ﷺ كَتِيبَةً مُسَلَّحَةً تَنْتَظِرُ الانْضِمَامَ إِلَيْهِمْ، وَحِينَ سَأَلَ عَنْهَا.. عَرَفَ أَنَّهَا مِنَ الْيَهُودِ يَرْغَبُونَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ.

رَفَضَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُشَارِكَ الْيَهُودُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَالِ، وَوَاصَلَ سَيْرَهُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ الأَلْفِ. وَانْتَهَى النَّهَارُ وَجَاءَ اللَّيْلُ، فَتَوَقَّفَ الْجَيْشُ حَتَّى الصَّبَاحِ.

كَانَ مِنْ بَيْنِ الْمُقَاتِلِينَ ثَلَاثُمِئَةِ مُنَافِقٍ يَدَّعُونَ الإِسْلَامَ وَهُمْ لَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ، انْتَظَرُوا حَتَّى اقْتَرَبَ مِيعَادُ الْفَجْرِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، قَادَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ إِلَى الانْسِحَابِ مِنَ الْجَيْشِ، وَحِينَ طَلَعَ نَهَارُ السَّبْتِ السَّابِعِ مِنْ شَوَّالٍ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا سَبْعُمِئَةِ مُقَاتِلٍ فَقَطْ. سَارَ بِهِمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَبَلِ أُحُدٍ. جَعَلَ الْجَبَلَ خَلْفَهُمْ وَوَقَفَ يُهَيِّئُهُمْ لِلْقِتَالِ.

قَسَّمَ الرَّسُولُ الْقَائِدُ ﷺ جَيْشَهُ إِلَى ثَلَاثِ كَتَائِبَ: كَتِيبَةٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يَقُودُهَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَكَتِيبَةُ الأَوْسِ يَقُودُهَا أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، والثَّالِثَةُ كَتِيبَةُ الْخَزْرَجِ يَقُودُهَا الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ. أَوْقَفَهُمْ فِي صُفُوفٍ، أَشِدَّاؤُهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ، وَأَمَرَهُمْ أَلَّا يَبْدَأُوا الْقِتَالَ حَتَّى يَأْمُرَهُمْ.

ثُمَّ اخْتَارَ الرَّسُولُ ﷺ خَمْسِينَ مُقَاتِلًا مِنَ الْمَهَرَةِ فِي رَمْيِ النِّبَالِ، طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَقِفُوا عَلَى الْجَبَلِ الْمُقَابِلِ لِجَبَلِ أُحُدٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَثْبُتُوا هُنَاكَ وَلَا يَنْزِلُوا إِلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ حَتَّى لَوْ رَأَوْا أَصْحَابَهُمْ يَنْهَزِمُونَ. أَمَّا إِذَا انْتَصَرُوا فَلَا يَنْزِلُونَ أَيْضًا مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ حَتَّى يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ.

وَسُبْحَانَ مَنْ عَلَّمَهُ الْخُطَطَ الْحَرْبِيَّةَ وَلَمْ يَكُنْ مُقَاتِلًا مِنْ قَبْلُ، قَدْ جَاءَ مَيْدَانَ الْمَعْرَكَةِ بَعْدَ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ، لَكِنَّهُ اتَّخَذَ أَفْضَلَ مَوْقِعٍ فِي الْمَيْدَانِ؛ حَمَى ظَهْرَهُ وَيَمِينَهُ بِالْجَبَلِ، وَسَدَّ الثَّغْرَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَلْتَفَّ مِنْهَا الْمُشْرِكُونَ بِرُمَاةِ النِّبَالِ.

وَقَفَ الرَّسُولُ الْقَائِدُ ﷺ فِي مَكَانٍ عَالٍ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ يَحْرُسُهُ تِسْعَةٌ فَقَطْ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ: طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَبْعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

رَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يَبُثُّ رُوحَ الْحَمَاسَةِ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ لِلشُّهَدَاءِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، فَيَتَحَوَّلُونَ إِلَى أُسُودٍ جَسُورَةٍ يَعْلُو زَئِيرُهُمْ طَلَبًا لِلشَّهَادَةِ. فَيَبُثُّونَ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَشْجَعُ فُرْسَانِهِمْ رَاكِبًا جَمَلًا طَالِبًا مَنْ يُبَارِزُهُ.

مِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ تَقَدَّمَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ. كَالْفَهْدِ قَفَزَ فَوْقَ الْجَمَلِ وَصَارَ خَلْفَ الْفَارِسِ، احْتَضَنَهُ وَسَقَطَ بِهِ عَلَى الأَرْضِ.. تَصَارَعَا كَثِيرًا حَتَّى تَغَلَّبَ الزُّبَيْرُ عَلَى أَشْجَعِ فُرْسَانِ قُرَيْشٍ وَأَرْسَلَهُ إِلَى جَهَنَّمَ.

وَصَاحَ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ صَيْحَاتٍ مُدَوِّيَةً: اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ، زَلْزَلَتْ قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ. وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ.

رَاحَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجَةُ أَبِي سُـفْيَانَ تَقُودُ النِّسْوَةَ بَيْنَ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ، يَضْرِبْنَ بِالدُّفُوفِ.. يُحَرِّضْنَ رِجَالَهُنَّ عَلَى الْقِتَالِ، وَتَحَوَّلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أُسُودٍ لَا يَهَابُونَ الْمَوْتَ.. حَرِيصُونَ عَلَى الشَّهَادَةِ، تَرْتَجِفُ أَمَامَهُمْ قُلُوبُ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يَخْتَرِقُونَ صُفُوفَهُمْ.. وَكُلٌّ مِنْهُمْ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ عَدُوَّهُ أَوْ أَنْ يَنَالَ الشَّـهَادَةَ فَيَهَبَ اللهُ لَهُ الْحَيَاةَ وَيَكْتُبَ الْمَوْتَ لِعَـدُوِّهِ، وَتَتَطَايَرُ الرِّقَابُ أَمَامَهُمْ كَمَا تَتَطَايَرُ الأَوْرَاقُ أَمَامَ الرِّيَاحِ.

كَانَ وَحْشِـيُّ بْنُ حَرْبٍ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ مَشْـهُورًا بِأَنَّهُ يَرْمِي حَرْبَتَهُ فَلَا تُخْطِئُ أَبَدًا، لَكِنَّهُ يُشَـارِكُ فِي الْحَرْبِ، وَلَمْ يُرْسِـلْهَا إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ؛ فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ حَمْـزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِيَقْتُلَـهُ، وَرَاحَ يَتَرَبَّصُ بِهِ، يَتَوَارَى خَلْفَ الأَحْجَارِ مُقْتَرِبًا مِنْهُ فِي خَوْفٍ، يَبْحَثُ عَنْ فُرْصَةٍ لِيُرْسِلَ إِلَيْهِ حَرْبَتَهُ، وَمَا إِنْ وَجَدَهُ مُقْبِلًا نَاحِيَتَهُ مُهَاجِمًا لِأَحَدِ الْمُشْـرِكِينَ.. حَتَّى أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ لِتَخْتَرِقَ بَطْنَهُ وَتُوقِعَهُ عَلَى الأَرْضِ. انْتَظَرَ حَتَّى فَارَقَتْـهُ رُوحُهُ وَصَعِدَتْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَرَاحَ وَانْتَزَعَ حَرْبَتَهُ وَانْسَحَبَ مِنْ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَقَدْ حَقَّقَ مَا يُرِيدُ سَيِّدُهُ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ الَّذِي وَعَدَهُ إِنْ قَتَلَ حَمْزَةَ سَيُعْتِقُهُ وَيَصِيرُ حُرًّا.

خَسِـرَ الْمُسْلِمُونَ خَسَارَةً كَبِيرَةً بِاسْتِشْـهَادِ حَمْزَةَ، لَكِنَّ إِيمَانَهُمْ بِاللهِ جَعَلَهُمْ يَزْدَادُونَ إِصْرَارًا عَلَى النَّصْرِ.. وَرَاحَتْ سُيُوفُهُمْ تَلْمَعُ كَالْبَرْقِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وَهِيَ تَخْتَـرِقُ الصُّدُورَ وَالرِّقَابَ، بَيْنَمَا رُمَاةُ النِّبَالِ مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ الْمُقَابِلِ لأُحُدٍ يَرْمُونَ بِنِبَالِهِمْ تَخْتَرِقُ صُـدُورَ مَنْ يُحَاوِلُ الالْتِفَافَ خَلْفَ جَيْشِ الْمُسْـلِمِينَ،

وَأَدْرَكَ جَيْشُ الْمُشْـرِكِينَ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْدِرُوا عَلَى هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَدَأُوا يَفِرُّونَ مِنْ أَمَامِهِمْ، تَارِكِينَ عُدَّتَهُمْ وَسِـلَاحَهُمْ، حَتَّى هِنْدُ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ وَصَاحِبَاتُهَا رَمَيْنَ دُفُوفَهُنَّ وَأَسْـرَعْنَ هَارِبَاتٍ إِلَى صُخُورِ الْجَبَلِ يَحْتَمِينَ خَلْفَهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّـهُ لَا يُطَارِدُهُنَّ أَيُّ مُقَاتِلٍ مِنْ مُقَاتِلِي الْمُسْـلِمِينَ.. وَرَفْرَفَ النَّصْرُ فَوْقَ رُؤُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَدَأُوا يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ.

رَأَى رُمَاةُ النِّبَالِ الَّذِينَ فَوْقَ الْجَبَلِ فُلُولَ جَيْشِ الْمُشْـرِكِينَ تَفِرُّ هَارِبَةً، وَرَأَوْا أَصْحَابَهُمْ يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ مِنْ سَـاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَنَسَوْا أَوَامِرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَلَّا يَتَحَرَّكُوا مِنْ مَكَانِهِمْ إِلَّا حِينَ يُرْسِلُ لَهُمْ. فَأَسْرَعَ أَرْبَعُونَ مِنْهُمْ بِالنُّزُولِ إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ طَمَعًا فِي الْغَنَائِمِ.. وَظَلَّ عَشَـرَةٌ فَقَطْ فِي مَكَانِهِمْ فَوْقَ الْجَبَلِ تَنْفِيذًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

انْتَهَزَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْفُرْصَةَ، وَانْطَلَقَ يَقُودُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْفُرْسَانِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَاتَلَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الرُّمَاةِ فَوْقَ الْجَبَلِ حَتَّى اسْتُشْـهِدُوا جَمِيعًا، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ خَلْفَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَصِيحُ دَاعِيًا الْمُقَاتِلِينَ الْمُشْرِكِينَ الْهَارِبِينَ لِلْعَوْدَةِ لِلْقِتَالِ، فَعَادُوا يُهَاجِمُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الأَمَامِ.

حُوصِرَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ، وَسَـقَطَ مِنْهُمُ الْكَثِيرُ مَا بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ، وَانْقَطَعَ اتِّصَالُهُمْ بِالرَّسُـولِ الْقَائِدِ ﷺ وَاخْتَفَتْ بَشَـائِرُ نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا بَشَائِرُ هَزِيمَتِهِمْ.

لَمْ يَرْضَ الرَّسُـولُ الْقَائِدُ ﷺ أَنْ يَتْرُكَ رِفَاقَهُ يَنْهَزِمُونَ وَيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ بَعِيدًا عَنْ

سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَصَاحَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ كَاشِفًا عَنْ مَكَانِهِ.

أَسْرَعَ عَدَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُقَاتِلُونَ حُرَّاسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَيْنَمَا الْبَاقُونَ يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَاصِرِينَ بَيْنَهُمْ، دَافَعَ حُرَّاسُ الرَّسُولِ ﷺ عَنْهُ بِبَسَالَةٍ حَتَّى اسْتُشْهِدَ الأَنْصَارُ السَّبْعَةُ وَبَقِيَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ.. وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ. وَكَانَتْ فُرْصَةً ذَهَبِيَّةً لِلْمُشْرِكِينَ.. رَكَّزُوا حَمْلَتَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَطَمِعُوا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ، لَكِنَّ صَاحِبَيْهِ دَافَعَا عَنْهُ فِي بُطُولَةٍ نَادِرَةٍ وَشَجَاعَةٍ لَمْ يَرَهَا الْقُرَشِيُّونَ فِي مُقَاتِلٍ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَنْجَحُوا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُمْ أَصَابُوهُ وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَرَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟

أَسْرَعَ عَدَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِنَجْدَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَضَاعَفَ عَدَدُ الْمُشْرِكِينَ، وَاشْتَدَّتِ الْحَرْبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالرَّسُولُ ﷺ فِي وَسَطِهِمْ يَتَلَقَّوْنَ النِّبَالَ وَالسِّهَامَ وَضَرَبَاتِ السُّيُوفِ فِي أَجْسَادِهِمْ دِفَاعًا عَنْهُ، وَظَلَّتِ الْحَرْبُ دَائِرَةً حَتَّى قَتَلَ ابْنُ قَمِيئَةَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ وَظَنَّهُ مُحَمَّدًا، فَصَاحَ فِي فَرْحَةٍ يَقُولُ:

- قَدْ قَتَلْتُ مُحَمَّدًا.

كَانَ لِهَذِهِ الإِشَاعَةِ أَثَرُهَا فِي أَنْ يَكُفَّ الْمُشْرِكُونَ عَنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ تَحَقَّقَ مَا أَرَادُوا.. وَرَاحُوا يَعْبَثُونَ بِسُيُوفِهِمْ فِي أَجْسَامِ الشُّهَدَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بَيْنَمَا بَاقِي الْمُسْلِمِينَ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ قَدْ رَكِبَهُمُ الْهَمُّ وَالْحُزْنُ، وَجَلَسُوا عَلَى الأَرْضِ يَائِسِينَ.

فِي هَذَا الْوَقْتِ.. أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ بَقِيَ مَعَهُ حَيًّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ طَرِيقَهُمْ إِلَى الْهُبُوطِ إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، فَرَآهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، فَفَرِحَ بِنَجَاتِهِ وَصَاحَ:

- يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَبْشِرُوا.. هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَصَلَ صَوْتُ كَعْبٍ إِلَى آذَانِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا وَصَلَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَانْتَبَهُوا وَاسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالِ مَرَّةً ثَانِيَةً، لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أَسْرَعَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَالْتَفُّوا حَوْلَ رَسُولِهِمْ ﷺ يُقَاتِلُونَ مِنْ حَوْلِهِ وَهُوَ يَشُقُّ بِهِمْ طَرِيقًا بَيْنَ صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ الْمُهَاجِمِينَ لَهُمْ، مُتَرَاجِعًا نَحْوَ جَبَلِ أُحُدٍ، وَصَعِدُوا عَلَيْهِ وَاحْتَمَوْا فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِهِ.

وَبَيْنَمَا الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ جَالِسُونَ فِي الشِّعْبِ، كَانَ أَبُو سُفْيَانَ وَخَالِدُ ابْنُ الْوَلِيدِ يَقُودَانِ عَدَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَتَسَلَّقُونَ الْجَبَلَ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلْهُجُومِ عَلَيْهِم مِنْ أَعْلَى، شَعَرَ بِهِمُ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ مُنَاجِيًا اللهَ:

- اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا.

قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَدَدٌ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ يُنَفِّذُونَ رَغْبَةَ الرَّسُولِ ﷺ، وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى أَجْبَرُوهُمْ عَلَى الْهُبُوطِ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الْوَادِي.

بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ الْمُسْلِمُونَ فِي الشِّعْبِ، أَحْضَرَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ مَاءً فِي دُرُوعِهِمَا، وَغَسَلَ الرَّسُولُ ﷺ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَصَبَّ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ شَرِبَ، وَدَعَا لَهُمَا بِالْخَيْرِ. وَصَلَّى بِالنَّاسِ وَهُوَ جَالِسٌ فَصَلُّوا خَلْفَهُ جُلُوسًا.

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَرَّرَ الانْسِحَابَ مُكْتَفِيًا بِمَا حَقَّقَهُ مِنْ نَصْرٍ مُؤَقَّتٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَبَدَأَ يَسْتَعِدُّ لِلِانْصِرَافِ عَائِدًا إِلَى مَكَّةَ. وَقَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِالْحَرَكَةِ وَجَّهَ حِصَانَهُ نَاحِيَةَ الْجَبَلِ، وَنَادَى بِصَوْتٍ عَالٍ؛ لِيَسْمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَقَالَ لَهُمْ:

- أَفِيكُمْ مُحَمَّدٌ؟

سَمِعَ الرَّسُولُ ﷺ سُؤَالَ أَبِي سُفْيَانَ كَمَا سَمِعَهُ الْمُسْلِمُونَ، طَلَبَ مِنْهُمْ أَلَّا يَرُدُّوا عَلَيْهِ.. جَاءَهُمْ صَوْتُ الرَّجُلِ يَسْأَلُ وَيَقُولُ:

- أَفِيكُمُ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟

لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، فَعَادَ لِلسُّؤَالِ وَقَالَ:

- أَفِيكُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؟

لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ أَيْضًا..فَقَالَ:

- هَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ مَاتُوا.

غَلَبَ الْغَيْظُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَعُودَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ وَهُوَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ قَتَلَ مُحَمَّدًا ﷺ وَابْنَ أَبِي قُحَافَةَ وَعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَقَامَ صَائِحًا يَقُولُ:

- يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ قَدْ ذَكَرْتَ أَحْيَاءٌ، وَقَدْ أَبْقَى اللهُ لَكَ مَا يَسُوؤُكَ.

عَادَ أَبُو سُفْيَانَ نَاحِيَةَ قَوْمِهِ حَزِينًا فَلَمْ يُحَقِّقْ حُلْمَهُ، ثُمَّ تَوَقَّفَ وَاسْتَدَارَ صَائِحًا:

- إِنَّ مَوْعِدَكُمْ بَدْرٌ الْعَامَ الْقَابِلَ.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قُلْ:

- نَعَمْ.. هُوَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدٌ.

وَسَمِعَ أَبُو سُفْيَانَ الرَّدَّ، وَرَاحَ يَقُودُ رِجَالَهُ نَحْوَ الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ.

انْتَظَرَ الرَّسُولُ ﷺ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:

- اخْــرُجْ فِي آثَارِ الْقَوْمِ فَانْظُــرْ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَمَا يُرِيدُونَ؟ فَــإِنْ كَانُوا قَدْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوُا الإِبِلَ فَهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ كَانُوا امْتَطَوُا الْخَيْلَ وَسَاقُوا الإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ أَرَادُوهَا لَأُقَاتِلَنَّهُمْ فِيهَا.

خَرَجَ عَلِيٌّ يُنَفِّذُ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ تَوَارَى خَلْفَ الصُّخُورِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ لِمُرَاقَبَةِ الْمُشْــرِكِينَ.. مَاذَا يَفْعَلُونَ وَإِلَى أَيْنَ يَسِيرُونَ، وَبَعْدَ أَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ عَادَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُمْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَرَكِبُوا الإِبِلَ وَأَخَذُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى مَكَّةَ.

هَبَطَ الرَّسُولُ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ وَجَمَعُوا شُهَدَاءَهُمْ، وَنَزَعُوا عَنْهُمْ دُرُوعَهُــمْ، وَوَضَعُوهُمْ فِي أَكْفَانِهِمْ، وَحَفَرُوا لَهُمْ قُبُورَهُمْ، وَنَقَلُوهُمْ إِلَيْهَا، وَوَقَفَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِجَانِبِ الْقُبُورِ وَقَالَ:

- أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ، إِنَّهُ مَا مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ فِي اللهِ، إِلَّا وَاللهُ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَدْمَى جُرْحُهُ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ.

ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ:

- اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَفَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَ الرَّسُولِ ﷺ صُفُوفًا.. وَرَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يُثْنِي عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَحْمَدُهُ، وَيَشْــكُو لَهُ الْكَفَرَةَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ، وَيَدْعُوهُ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ.

وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الدُّعَاءِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ.. وَدَّعَ الشُّهَدَاءَ وَأَخَذَ طَرِيقَهُ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَصَلَهَا فِي يَوْمِ السَّبْتِ السَّابِعِ مِنْ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

بَاتَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَيْلَةَ الأَحَدِ الثَّامِنِ مِنْ شَوَّالٍ لِلسَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ وَقَدْ أَنْهَكَهُمُ التَّعَبُ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْسُوا أَنْ يَضَعُوا حُرَّاسًا عَلَى مَدَاخِلِ الْمَدِينَةِ، وَبَاتَ الرَّسُولُ ﷺ مُفَكِّرًا فِيمَا حَدَثَ، فَلَمْ يَسْتَفِدِ الْمُشْرِكُونَ شَيْئًا مِنْ نَصْرِهِمْ فِي أُحُدٍ، وَلَمْ يُحَقِّقُوا شَيْئًا مِمَّا جَاءُوا مِنْ أَجْلِهِ وَلَمْ يَقْتُلُوهُ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُمْ رُبَّمَا يَرْجِعُونَ مِنَ الطَّرِيقِ وَيَأْتُونَ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَرَّرَ أَنْ يُطَارِدَهُمْ بِجَيْشٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي صَبَاحِ الأَحَدِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُنَادِي فِي النَّاسِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَاشْتَرَطَ أَلَّا يَخْرُجَ إِلَّا مَنْ قَاتَلَ فِي أُحُدٍ، وَتَجَمَّعَ الْمُقَاتِلُونَ، وَسَارُوا بِعُدَّتِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَكَانٍ اسْمُهُ حَمْرَاءُ الأَسَدِ، فَعَسْكَرُوا هُنَاكَ.

وَبَيْنَمَا الرَّسُولُ ﷺ فِي مَرْكَزِ قِيَادَتِهِ، جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ اسْمُهُ مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيُّ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، فَأَمَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِأَنْ يَلْحَقَ بِأَبِي سُفْيَانَ وَيَقُولَ لَهُ كَلَامًا يُخَوِّفُهُ مِنْ مُحَاوَلَةِ غَزْوِ الْمَدِينَةِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ عَلَى الْفَوْرِ يُنَفِّذُ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ.

كَانَ إِحْسَاسُ الرَّسُولِ ﷺ صَادِقًا؛ فَقَدْ جَلَسَ الْكُفَّارُ لِلرَّاحَةِ، وَلَحِقَ بِهِمْ صَفْوَانُ ابْنُ أُمَيَّةَ، وَهُمْ يَلُومُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَدَمِ الاسْتِمْرَارِ فِي الْمَعْرَكَةِ، حَتَّى الْخَلَاصِ مِنْ مُحَمَّدٍ وَقَادَةِ جَيْشِهِ، وَقَرَّرُوا الْعَوْدَةَ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ:

- يَا قَــوْمُ.. لَا تَفْعَلُوا، رُبَّمَا يَخْرُجُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَــمْ يُقَاتِلْ فِي أُحُدٍ، ارْجِعُوا وَأَنْتُمْ مُنْتَصِرُونَ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَرْجِعُوا مَهْزُومِينَ، فَيُصِيبَكُمُ الْعَارُ.

رَفَضَ الْجَيْشُ كُلُّهُ رَأْيَ صَفْوَانَ، وَقَرَّرُوا الْعَوْدَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكُوا جَاءَهُمْ مَعْبَدُ بْنُ أَبِي مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيُّ، بَادَرَهُ أَبُو سُفْيَانَ بِالْكَلَامِ وَقَالَ لَهُ:

- مَا وَرَاءَكَ يَا مَعْبَدُ؟

قَالَ:

- لَقَــدْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ خَلْفَكُمْ، وَقَدِ اجْتَمَعَ حَوْلَــهُ كُلُّ مُقَاتِلٍ لَمْ يَخْرُجْ يَوْمَ أُحُدٍ، يَحْمِلُونَ حِقْدًا عَلَيْكُمْ لَمْ أَرَ لَهُ مَثِيلًا.

صَاحَ أَبُو سُفْيَانَ غَاضِبًا يَقُولُ:

- وَيْحَكَ، مَاذَا تَقُولُ؟ لَقَدْ قَرَّرْنَا أَنْ نَغْزُوَهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ.

قَالَ مَعْبَدٌ:

- يَا أَبَا سُفْيَانَ.. إِنِّي لَكَ نَاصِحٌ. لَا تَفْعَلْ.

فَكَّرَ أَبُو سُــفْيَانَ فِيمَا سَــمِعَهُ مِنْ مَعْبَدٍ، خَافَ عَلَى جَيْشِهِ مِنَ الْهَزِيمَةِ، نَظَرَ إِلَى مُقَاتِلِيــهِ، فَوَجَدَ الْخَوْفَ قَدْ ظَهَرَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَحِينَ تَكَلَّمَ مَعَهُمْ اكْتَشَــفَ أَنَّ رَغْبَةَ الْقِتَالِ قَدْ هَرَبَتْ مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَأَمَرَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ.

وَظَلَّ الرَّسُولُ ﷺ بِجَيْشِهِ فِي حَمْرَاءِ الأَسَدِ يَنْتَظِرُ أَبَا سُفْيَانَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.. ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ

ذَاتَ يَوْمٍ.. كَانَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، يَسِيرُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَالْتَقَى بِرَجُلَيْنِ مُشْرِكَيْنِ مِنْ قَبِيلَةِ بَنِي عَامِرٍ، فَقَتَلَهُمَا وَأَخَذَ مَا مَعَهُمَا مِنْ حَاجَاتٍ. وَوَاصَلَ سَيْرَهُ. ذَهَبَ عَمْرٌو إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِمَا فَعَلَ، وَأَعْطَاهُ حَاجَاتِهِمَا، غَضِبَ الرَّسُولُ ﷺ فَقَدْ قَتَلَ عَمْرٌو رَجُلَيْنِ لَهُمَا عَهْدُ أَمَانٍ مَعَهُ.

بَلَغَ الأَمْرُ إِلَى عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ زَعِيمِ قَبِيلَةِ بَنِي عَامِرٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ مَنْ يَقُولُ لَهُ:

- إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ قَتَلَ رَجُلَيْنِ مِنْ قَوْمِي، فَابْعَثْ إِلَيْنَا بِدِيَتِهِمَا.

قَرَّرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَدْفَعَ دِيَةَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى لَا تَقُومَ حَرْبٌ جَدِيدَةٌ يُسْتَشْهَدُ فِيهَا الْمَزِيدُ مِنَ الرِّجَالِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ يَدْفَعُهُ، فَأَخَذَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى قَبِيلَةِ بَنِي النَّضِيرِ - الْيَهُودِيَّةِ - يَسْتَدِينُ مِنْهُمْ مَا يُسَاعِدُهُ.

ادَّعَى بَنُو النَّضِيرِ أَنَّهُمْ قَبِلُوا مُسَاعَدَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَصَرُّوا أَنْ يَتَنَاوَلَ طَعَامَ الْغَدَاءِ عِنْدَهُمْ، لَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ وَجَدُوا وُجُودَهُ عِنْدَهُمْ فُرْصَةً لِقَتْلِهِ وَكَلَّفُوا عُمَرَ بْنَ جِحَاشٍ بِأَنْ يَأْتِيَ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ يُدَحْرِجُهُ مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الدَّارِ الَّتِي يَجْلِسُ الرَّسُولُ ﷺ بِجِوَارِ جِدَارِهَا وَيَقْتُلُهُ. وَنَفَّذَ الرَّجُلُ الأَمْرَ، وَقَبْلَ أَنْ يَقْذِفَ بِالْحَجَرِ هَبَّ الرَّسُولُ ﷺ وَاقِفًا مُبْتَعِدًا عَنِ الْمَكَانِ دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ.

وَانْتَظَرَهُ أَصْحَابُهُ قَلِيلًا رُبَّمَا يَقْضِي شَـيْئًا وَيَعُودُ، وَحِينَ تَأَخَّرَ قَلِقُوا عَلَيْهِ، وَقَامُوا مُغَادِرِينَ بَنِي النَّضِيرِ لِيَطْمَئِنُّوا عَلَيْهِ. سَارَ الصَّحَابَةُ فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ، قَابَلُوا رَجُلًا قَادِمًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ:

- هَلْ رَأَيْتَ الرَّسُولَ ﷺ؟

قَالَ الرَّجُلُ:

- نَعَمْ.. لَقِيتُهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ الآنَ.

اطْمَأَنَّ الصَّحَابَةُ عَلَى رَسُـولِهِمْ ﷺ، وَأَخَذُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى دَارِهِ، وَحِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ، سَأَلُوهُ وَقَالُوا:

- يَا رَسُولَ اللهِ قُمْتَ وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا.

أَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ:

- أَخْبَرَنِي اللهُ بِأَنَّ الْيَهُودَ سَتَغْدِرُ بِي.. فَقُمْتُ.

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ أَرْسَـلَ مَنْ يَأْتِي بِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ.. وَحِينَ جَاءَ، طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ وَيُخْبِرَهُمْ بِأَنَّ الرَّسُـولَ ﷺ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ؛ فَقَدْ نَقَضُوا الْعَهْـدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ بِمُحَاوَلَةِ قَتْلِـهِ، وَأَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ رَأَى عُمَرَ بْنَ جِحَاشٍ وَهُوَ عَلَى سَطْحِ الدَّارِ يَسْتَعِدُّ لأَنْ يَطْرَحَ عَلَيْهِ الصَّخْرَةَ.

ذُهِلَ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ لأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بِطَرْدِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، لَكِنَّ إِحْسَاسَهُمْ بِالذَّنْـبِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُ، بِتَآمُرِهِمْ عَلَى قَتْلِهِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ، جَعَلَهُمْ

يَصْمُتُونَ وَلَا يُعَارِضُونَ. فَوَاصَلَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ نَقْلَ رِسَالَتِهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يُمْهِلُهُمْ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، وَمِنْ بَعْدِهَا سَيَأْمُرُ بِقَتْلِ مَنْ يُوجَدُ فِي الْمَدِينَةِ.

بَلَّغَ الرَّجُلُ الرِّسَالَةَ وَانْصَرَفَ عَائِدًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، أَمَّا الْيَهُودُ فَقَدْ بَدَأُوا يَسْتَعِدُّونَ لِلرَّحِيلِ، وَذَاعَ خَبَرُ طَرْدِ الرَّسُولِ لَهُمْ، فَأَرْسَلَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولٍ زَعِيمُ الْمُنَافِقِينَ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَلَّا يَخْرُجُوا وَأَنْ يَثْبُتُوا فِي حُصُونِهِمْ، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيَمُدُّهُمْ بِأَلْفَيْنِ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ، وَأَنَّ حُلَفَاءَهُمْ مِنْ قُرَيْظَةَ وَغَطَفَانَ سَيَفْعَلُونَ مِثْلَهُ.

عَادَتِ الثِّقَةُ لِلْيَهُودِ، وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى عَدَمِ طَاعَةِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَعَثَ رَئِيسُهُمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ لِلرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ لَهُ:

- إِنَّا لَا نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ.

كَبَّرَ الرَّسُولُ الْقَائِدُ ﷺ، وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَقَالَ ﷺ:

- حَارَبَتِ الْيَهُودُ.

وَأَمَرَ الْمُنَادِيَ أَنْ يُنَادِيَ الْمُقَاتِلِينَ بِالسَّيْرِ إِلَى قِتَالِ بَنِي النَّضِيرِ، وَحِينَ اجْتَمَعَ الرِّجَالُ، سَارَ بِهِمْ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْفَضَاءِ الَّذِي يُحِيطُ بِبَسَاتِينِ وَنَخِيلِ بَنِي النَّضِيرِ الَّتِي تُحِيطُ بِبُيُوتِهِمْ، وَجَاءَ أَوَانُ الْعَصْرِ فَرَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يُصَلِّي بِرِجَالِهِ.

رَأَى بَنُو النَّضِيرِ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ فَأَسْرَعُوا إِلَى حُصُونِهِمْ يَحْمِلُونَ الْحِجَارَةَ وَالنِّبَالَ، يَقْذِفُونَ بِهَا مِنْ فَوْقِ الْجُدْرَانِ، وَأَرْسَلُوا يَسْتَنْجِدُونَ بِزَعِيمِ الْمُنَافِقِينَ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَغَطَفَانَ، أَنْ يَمُدُّوهُمْ بِالرِّجَالِ وَالسِّلَاحِ كَمَا وَعَدُوا، لَكِنْ لَمْ

يُنْجِدْهُمْ أَحَدٌ، فَظَلُّوا عَلَى حَالِهِمْ يَقْذِفُونَ بِالْحِجَارَةِ وَالنِّبَالِ فِي اتِّجَاهِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى حَلَّ الظَّلَامُ.

حَاصَرَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بَنِي النَّضِيرِ فِي حُصُونِهِمْ سِتَّةَ أَيَّامٍ.. مَنْ يَخْرُجُ مِنْهُمْ يُقْتَلُ، وَأَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَقْهَرَهُمْ وَيُوجِعَ قُلُوبَهُمْ، فَأَمَرَ رِجَالَهُ بِقَطْعِ أَشْجَارِ النَّخِيلِ وَحَرْقِهَا؛ فَهِيَ ثَرْوَتُهُمُ الَّتِي يَتَبَاهَوْنَ بِهَا.

وَمَا بَدَأَ الرِّجَالُ فِي تَنْفِيذِ الأَمْرِ إِلَّا وَارْتَفَعَ صُرَاخُ النِّسْوَةِ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ حُزْنًا عَلَى ضَيَاعِ ثَرْوَتِهِمْ، وَدَبَّ الرُّعْبُ فِي نُفُوسِ الرِّجَالِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ يَطْلُبُونَ أَنْ يُعْلِنُوا اسْتِسْلَامَهُمْ وَاسْتِعْدَادَهُمْ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ.

وَافَقَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَلَى خُرُوجِ بَنِي النَّضِيرِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَنْفُسِهِمْ فَقَطْ، وَأَنْ يَتْرُكُوا سِلَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَرَاحُوا يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ: يَقْتَلِعُونَ أَبْوَابَهَا وَسُقُوفَهَا وَيَضَعُونَهَا فَوْقَ الْجِمَالِ، وَارْتَحَلُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَمِنْهُمُ اثْنَانِ فَقَطْ أَعْلَنَا إِسْلَامَهُمَا وَشَهِدَا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

تَرَكَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ زَعِيمُ الْيَهُودِ قَوْمَهُ فِي خَيْبَرَ، وَانْطَلَقَ إِلَى زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ، وَرَاحَ يَدْعُوهُمْ أَنْ يَتَّحِدُوا مَعَهُ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ جَيْشًا مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَثَلَاثِمِئَةِ فَرَسٍ، وَأَلْفٍ وَخَمْسِمِئَةِ جَمَلٍ مُحَمَّلَةٍ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَبَدَأَ الْجَيْشُ طَرِيقَهُ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، يَقُودُهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ كَالْعَادَةِ.

جَاءَتِ الأَخْبَارُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَجَمَعَ أَصْحَابَهُ يَتَشَاوَرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ، وَكَانَ رَأْيُهُمْ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْجَيْشِ الْقَادِمِ مِنْ مَكَّةَ، وَأَنْ يَنْتَظِرُوهُ فِيهَا وَيُقَاتِلُوهُ فِي

الْمَدِينَةِ، فَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ:

- يَا رَسُولَ اللهِ.. الْقَلِيلُ لَا يُقَاوِمُ الْكَثِيرَ.

رَدَّ الرَّسُولُ ﷺ قَائِلًا:

- مَاذَا نَصْنَعُ؟

رَدَّ سَلْمَانُ قَائِلًا:

- نَحْفِرُ خَنْدَقًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهَا.

أُعْجِبَ الرَّسُولُ ﷺ بِالْفِكْرَةِ، وَرَكِبَ فَرَسًا وَصَحِبَ مَعَهُ عَدَدًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَرَاحُوا يَخْتَارُونَ الْمَكَانَ الْمُنَاسِبَ لِحَفْرِ الْخَنْدَقِ.

اخْتَارَ الرَّسُولُ ﷺ الْمَسَافَةَ مِنْ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ بخربى إِلَى جَبَلِ رَاتِجَ مُرُورًا بِوَادِي جَبَلِ سَلْعَ، قَسَّمَهَا إِلَى مَسَافَاتٍ مُتَسَاوِيَةٍ، طُولُ كُلٍّ مِنْهَا ثَلَاثُونَ خُطْوَةً، وَبَدَأَ كُلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَتَنَافَسُونَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ؛ مَجْمُوعَةٌ تُفَتِّتُ الأَرْضَ بِالْمَعَاوِلِ، وَمَجْمُوعَةٌ تَحْمِلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَافِهَا وَتَنْقُلُهُ بَعِيدًا، كُلُّ هَذَا وَالرَّسُولُ ﷺ يَعْمَلُ مَعَهُمْ، وَيَعْرَقُ جَسَدُهُ الشَّرِيفُ وَتَلْتَصِقُ مَلَابِسُهُ بِجَسَدِهِ وَيَعْلُوهَا التُّرَابُ.

وَيُفَاجَأُ الْمُسْلِمُونَ بِصَخْرَةٍ صُلْبَةٍ كَبِيرَةٍ تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُمْ، ضَرَبُوهَا بِالْمَعَاوِلِ فَتَكَسَّرَتِ الْمَعَاوِلُ وَلَمْ تَتَأَثَّرِ الصَّخْرَةُ، وَجَاءَ الرَّسُولُ ﷺ، وَأَخَذَ مِعْوَلًا.. ضَرَبَ بِهِ الصَّخْرَةَ ثَلَاثًا، وَهُوَ يَصِيحُ بِاسْمِ اللهِ، فَتَفَتَّتَتْ، وَسَطَ دَهْشَةِ الْحَاضِرِينَ وَتَكْبِيرِهِمْ، وَوَاصَلُوا حَفْرَ الْخَنْدَقِ.

كَانَ إِيمَانُهُمْ بِاللهِ وَرَسُــولِهِ ﷺ وَعِلْمُهُمْ بِالْعَدُوِّ الْقَادِمِ إِلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ فِي عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَخَوْفُهُمْ عَلَى الدِّينِ وَالرَّسُولِ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ، يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِحَمَاسٍ، خَمْسَــةَ عَشَرَ يَوْمًا مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى حُلُولِ الظَّلَامِ، وَهُمْ يَعْمَلُونَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ حَتَّى انْتَهَوْا مِنْهُ، جَعَلُوا عَرْضَهُ خَمْسَــةَ أَذْرُعٍ وَعُمْقَهُ مِثْلَهَا، وَبِهَذَا قَطَعُوا الطَّرِيقَ أَمَــامَ الْقَادِمِ مِنْ مَكَّــةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَّا الْجِهَاتُ الأُخْرَى فَيَحْمِيهَــا الْبُنْيَانُ وَالْجِبَــالُ، وَبِهَذَا صَارَتِ الْمَدِينَةُ آمِنَةً كَالْحِصْنِ؛ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْخَيْلُ أَنْ تَقْفِزَ مِنْ فَوْقِ الْخَنْدَقِ أَوْ تَتَسَلَّقَ الْجِبَالَ.

جَمَعَ الْمُسْـلِمُونَ النِّسَـاءَ وَالأَطْفَالَ فِي أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ عَنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، آمِنَةٍ لَا يَسْـتَطِيعُ الْمُشْـرِكُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهَا، وَتَجَمَّعَ ثَلَاثَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، بِدُرُوعِهِمْ.. وَسُيُوفِهِمْ.. وَنِبَالِهِمْ، وَعَسْكَرَ بِهِمُ الرَّسُولُ ﷺ فِي وَادِي جَبَـلِ سَلْعٍ، فَصَارَ الْجَبَلُ خَلْفَهُمْ، وَالْخَنْدَقُ أَمَامَهُمْ. وَكَوَّنَ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ أَمَرَهُمْ أَنْ يُعَسْـكِرُوا فِي أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ عَلَى طُـولِ الْخَنْدَقِ، بَيْنَمَا ثَلَاثُونَ فَارِسًا يَرُوحُونَ وَيَجِيئُونَ بَيْنَ طَرَفَيْهِ، وَجَلَسُوا فِي انْتِظَارِ جَيْشِ الْمُشْـرِكِينَ، وَهُمْ مُطْمَئِنُّـونَ بِأَنَّهُمْ صَارُوا آمِنِينَ. وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ مُتَأَهِّبِينَ بِسِلَاحِهِمْ لِلْقِتَالِ.

حِينَ وَصَلَ جَيْشُ الْمُشْـرِكِينَ فُوجِئَ بِالْخَنْدَقِ يَقْطَعُ عَلَيْـهِ الطَّرِيقَ، فَوَقَفَ عَاجِزًا عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَعَسْكَرَ بِالْعَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ وَالأَلْفِ وَخَمْسِمِئَةِ بَعِيرٍ أَمَـامَ الْخَنْدَقِ، وَصَارُوا يَرُوحُونَ وَيَجِيئُونَ بِخُيُولِهِمْ عَلَى حَافَتِهِ، يُرْسِـلُونَ نِبَالَهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ بِالنِّبَالِ أَيْضًا، فَيَهْرُبُونَ.

بَحَثَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ نُقْطَةٍ ضَيِّقَةٍ فِي الْخَنْدَقِ، حَتَّى وَجَدُوهَا، وَصَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَكَثِيرٌ مِنْ قَادَةِ جَيْشِ الْمُشْـرِكِينَ يَأْتُونَ لَيْلًا.. الْوَاحِدُ بَعْدَ الآخَرِ.. وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَقُودُ عَدَدًا مِنَ الْفُرْسَـانِ، يُحَاوِلُونَ الْقَفْزَ مِنْ فَوْقِ تِلْكَ النُّقْطَةِ الضَّيِّقَةِ مِنَ الْخَنْدَقِ، فَيُرْسِـلُ الْمُسْـلِمُونَ إِلَيْهِمُ النِّبَـالَ وَالْحِجَارَةَ تَنْزِلُ فَوْقَهُمْ مِثْلَ حَبَّاتِ الْمَطَرِ، فَيَنْسَحِبُونَ إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ يُدَاوُونَ جِرَاحَهُمْ.

وَذَاتَ يَوْمٍ.. دَفَعَ الْيَأْسُ عَدَدًا مِنْ فُرْسَـانِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ عَمْرُو بْنُ وُدٍّ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّـابِ، أَنْ يُغَامِرُوا وَيَجْعَلُوا خَيْلَهُمْ تَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ تِلْكَ النُّقْطَةِ الضَّيِّقَةِ، وَصَارُوا خَلْفَ الْخَنْدَقِ أَمَامَ جَبَلِ سَلْعٍ، أَسْرَعَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ وَبَعْضُ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْخَنْدَقِ حَتَّى يُحَاصِرُوهُمْ وَلَا يَسْتَطِيعُوا الرُّجُوعَ.

حِينَ رَأَى فُرْسَـانُ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ مُحَاصَرُونَ بِالْمُسْـلِمِينَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَأَنَّهُمْ إِذَا قَاتَلُوا فَهُمْ هَالِكُونَ، صَاحَ عَمْرُو بْنُ وُدٍّ وَقَالَ:

- هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟

تَقَدَّمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِيُبَارِزَهُ، فَقَالَ عَمْرٌو فِي كِبْرِيَاءٍ:

- لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ فَوَاللهِ لَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ.

رَدَّ عَلِيٌّ فِي ثِقَةٍ وَقَالَ:

- وَاللهِ أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ.

وَتَبَارَزَ الْفَارِسُ الْمُشْرِكُ وَالشَّابُّ الْمُسْلِمُ، وَأَيَّدَ اللهُ عَلِيًّا فَقَتَلَ عَمْرًا. وَهَرَبَ بَاقِي الْفُرْسَانِ إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ مَذْعُورِينَ، وَبَعْدَ أَنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، أَقْبَلَ نَوْفَلُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ عَلَى فَرَسِهِ يُرِيدُ أَنْ يَقْفِزَ مِنْ فَوْقِ الْخَنْدَقِ؛ لِيَنْتَقِمَ لِمَقْتَلِ عَمْرِو بْنِ وُدٍّ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ فَرَسُهُ أَنْ تَعْبُرَ الْخَنْدَقَ وَسَقَطَتْ بِهِ، وَحَطَّمَتْ ضُلُوعَهُ، فَأَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ يَعْرِضُ مِئَةً مِنَ الإِبِلِ؛ حَتَّى يَسْمَحَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ بِأَنْ يَأْخُذُوا جُثَّتَهُ، رَفَضَ الرَّسُولُ ﷺ الإِبِلَ وَسَمَحَ لَهُمْ بِأَنْ يَأْخُذُوهُ. ثُمَّ قَامَ الْمُسْلِمُونَ بِحَفْرِ جَوَانِبِ تِلْكَ الْمَسَافَةِ الضَّيِّقَةِ حَتَّى صَارَتْ مِثْلَ بَقِيَّةِ الْخَنْدَقِ لَا تَقْدِرُ الْخَيْلُ عَلَى الْقَفْزِ مِنْ فَوْقِهَا.

ثَارَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ غَاضِبًا غَيْرَ رَاضٍ عَنْ خَسَائِرِهِ الْمُتَوَاصِلَةِ، وَصَاحَ طَالِبًا حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ زَعِيمَ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ، وَالَّذِي حَرَّضَهُمْ عَلَى قِتَالِ الرَّسُولِ ﷺ، وَيَأْمُرُهُ بِأَنْ يَذْهَبَ إِلَى يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَيَجْعَلَهُمْ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى يُهَاجِمُوهُ مِنَ الْخَلْفِ.

ذَهَبَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ زَعِيمُ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ زَعِيمِ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْقُضَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَرَفَضَ كَعْبُ ابْنُ أَسَدٍ بِشِدَّةٍ، وَقَالَ:

- يَا حُيَيُّ.. إِنِّي عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا، وَلَمْ نَرَ مِنْهُ إِلَّا صِدْقًا، وَوَاللهِ لَقَدْ أَحْسَنَ جِوَارَنَا فَكَيْفَ أَنْقُضُ عَهْدَهُ؟

رَدَّ حُيَيٌّ وَقَالَ بِبُرُودٍ وَثِقَةٍ:

- يَا كَعْبُ، إِنَّ مَعِي سَادَةَ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا وَقَادَتَهَا، يَقُودُونَ عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَأَلْفَ فَرَسٍ، وَقَدْ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَرْجِعُوا حَتَّى يَقْتُلُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ.

وَظَلَّ حُيَيٌّ يُؤَكِّدُ لِكَعْبٍ أَنَّ مُحَمَّدًا سَيُقْتَلُ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَلَنْ يَنْجُوَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، حَتَّى قَامَ كَعْبٌ وَأَحْضَرَ وَثِيقَةَ الْعَهْدِ، فَأَخَذَهَا حُيَيٌّ وَمَزَّقَهَا، وَأَمَرَ كَعْبًا أَنْ يُصْلِحُوا حُصُونَهُمْ وَيَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ.

قَبْلَ أَنْ يَصِلَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، يُبَشِّرُهُ بِأَنَّ كَعْبًا قَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَدْ أَسْرَعَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَقَالَ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ.. بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضَتِ الْعَهْدَ.

أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ صِدْقِ الْخَبَرِ، فَسَأَلَ عُمَرَ وَقَالَ لَهُ:

- مَنْ نَبْعَثُ لِيَأْتِيَ لَنَا بِخَبَرِهِمْ؟

قَالَ عُمَرُ:

- الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ.

تَسَلَّلَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ بَيْنَ صُخُورِ الْجِبَالِ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ يَنْظُرُ حُصُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَرَأَى حَالَهُمْ، فَعَادَ مُسْرِعًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ لَهُ:

- رَأَيْتُهُمْ يُصْلِحُونَ حُصُونَهُمْ وَطُرُقَهُمْ وَيَجْمَعُونَ مَاشِيَتَهُمْ.

عَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ يَسْتَعِدُّونَ لِلْهُجُومِ عَلَى الْمَدِينَةِ.. فَكَلَّفَ سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ بْنِ حُرَيْشٍ أَنْ يَقُودَ مِئَتَيْ رَجُلٍ، وَزَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ يَقُودُ ثَلَاثَمِئَةٍ، وَيَحْرُسُونَ الْمَدِينَةَ لَيْلًا، وَأَنْ يُكَبِّرُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ يَصِلُونَ إِلَيْهِ؛ لِذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ يَهْجُمُوا عَلَى الْمَدِينَةِ، بَلْ كَانُوا يَخْرُجُونَ فِي جَمَاعَاتٍ صَغِيرَةٍ يُنَاوِشُونَ هُنَا وَهُنَاكَ، وَيَتَصَدَّى لَهُمُ الْمُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ يُكَبِّرُونَ، فَيَدِبُّ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيُسْرِعُونَ إِلَى حُصُونِهِمْ يَحْتَمُونَ فِيهَا.

جَاءَتِ الأَخْبَارُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنَّ مُقَاتِلِي قَبِيلَةِ غَطَفَانَ الْمُشْتَرِكِينَ فِي جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ.. قَدْ بَدَأُوا يَمَلُّونَ. وَكَانَتْ فُرْصَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأَنْ يَسْتَخْدِمَ الْحِيلَةَ لِيُنْهِيَ حِصَارَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ لِلْمَدِينَةِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ لَا يَدْخُلُ فِي قِتَالٍ مَعَهُمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى مُقَاتِلِي غَطَفَانَ يُغْرِيهِمْ بِثُلُثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ إِنْ رَحَلُوا إِلَى مَكَّةَ. وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ أَرْسَلَ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ بِرِسَالَتَيْنِ وَاحِدَةٍ إِلَى يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ.

لَمْ يَكُنْ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَا جَيْشُ الْمُشْرِكِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ قَدْ أَسْلَمَ.. لِذَلِكَ اخْتَارَهُ الرَّسُولُ ﷺ لِيَكُونَ لَهُمْ نَاصِحًا فَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مَا زَالَ مِثْلَهُمْ.

رَاحَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ إِلَى يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ، جَلَسَ مَعَهُمْ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ مُشْرِكًا. رَاحُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حَالِ الْحِصَارِ، فَقَالَ لَهُمْ:

- أَنْتُمْ نَقَضْتُمْ عَهْدَكُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ، وَحَالَفْتُمْ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ، أَلَمْ تُفَكِّرُوا أَنَّهُمَا رُبَّمَا يَمَلَّانِ الْحِصَارَ وَيَرْحَلَانِ إِلَى مَكَّةَ؟! سَاعَتَهَا سَتَكُونُونَ وَحْدَكُمْ أَمَامَ مُحَمَّدٍ فَيَنْتَقِمُ مِنْكُمْ.

فَكَّرَ الْيَهُودُ فِي كَلَامِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَوَجَدُوهُ مَعْقُولًا، وَرُبَّمَا يَحْدُثُ فِعْلًا، فَقَالُوا لَهُ:

- وَمَاذَا نَفْعَلُ؟

قَالَ:

- اطْلُبُوا مِنْهُمْ رِجَالًا يَكُونُونَ رَهْنًا عِنْدَكُمْ، حَتَّى لَا يَتْرُكُوكُمْ وَيَرْحَلُوا، وَيُضْطَرُّوا لِلْقِتَالِ مَعَكُمْ.

وَرَاحَ ابْنُ مَسْعُودٍ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُشْرِكٌ مِثْلُهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ يَهُودَ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى نَقْضِ عَهْدِهِمْ مَعَ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُمْ يَنْوُونَ أَنْ يُصَالِحُوهُ، وَقَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ عَدَدًا مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ لِيَقْتُلَهُمْ دَلِيلًا عَلَى عَهْدِهِمْ لَهُ. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى قَادَةِ غَطَفَانَ وَقَالَ لَهُمْ نَفْسَ الْكَلَامِ..

وَعَادَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَنْهَى مُهِمَّتَهُ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الظَّلَامُ.

جَعَلَ ابْنُ مَسْعُودٍ كُلَّ الْحُلَفَاءِ يَشُكُّونَ فِي بَعْضِهِمْ، وَأَرَادَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ نِيَّةِ الآخَرِ، أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُمْ لَابُدَّ أَنْ يُحَارِبُوا، فَرَدَّ عَلَيْهِ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ يَطْلُبُ أَلْفَ مُقَاتِلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَلْفًا مِنْ غَطَفَانَ لِيُقَاتِلُوا مَعَهُمْ.

وَرَفَضَ أَبُو سُفْيَانَ، وَرَفَضَ أَيْضًا قَادَةُ غَطَفَانَ.. وَقَدْ تَأَكَّدَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنْ كَلَامِ ابْنِ مَسْعُودٍ، كَمَا تَأَكَّدَ عِنْدَ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَهَكَذَا أَتَتْ حِيلَةُ الرَّسُولِ ﷺ نَتِيجَتَهَا الَّتِي يُرِيدُهَا، وَظَنَّ أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ مَعَهُ إِلَّا مُقَاتِلُو غَطَفَانَ، فَرَاحَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟ فَأَخْبَرُوهُ بِعَدَمِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْقِتَالِ، فَعَادَ إِلَى خَيْمَتِهِ مَهْمُومًا لَا يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ، وَهُنَاكَ تَمَدَّدَ لِيَسْتَرِيحَ حَتَّى الصَّبَاحِ.

حِينَ هَدَأَ الْجَمِيعُ وَدَخَلُوا خِيَامَهُمْ وَنَامُوا، إِذَا بِعَاصِفَةٍ قَوِيَّةٍ أَطْفَأَتْ نِيرَانَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَلَبَتْ قُدُورَهُمْ، وَاقْتَلَعَتْ أَوْتَادَ خِيَامِهِمْ وَأَوْقَعَتْهَا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، وَحِينَ خَرَجَ جَيْشُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَحْتِهَا فُوجِئُوا بِالْمَطَرِ يَهْطِلُ غَزِيرًا، وَبِالْبَرْقِ يَلْمَعُ فِي الصَّحْرَاءِ، بَيْنَمَا الرَّعْدُ يُصِمُّ آذَانَهُمْ.

أَدْرَكَ أَبُو سُفْيَانَ بِأَنَّ الْعَاصِفَةَ سَتُهْلِكُ خَيْلَهُمْ وَجِمَالَهُمْ وَبِغَالَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ، فَصَاحَ فِي الْمُقَاتِلِينَ يَطْلُبُ مِنْهُمُ الرَّحِيلَ. وَحِينَ أَصْبَحَ الصُّبْحُ، لَمْ يَجِدِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَاحِدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَ الْخَنْدَقِ، فَعَادُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ وَهُمْ يَشْكُرُونَ اللهَ الَّذِي نَصَرَهُمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ دُونَ قِتَالٍ.

غَزْوَةُ مُؤْتَة

ثَمَانِي سَنَوَاتٍ مَرَّتْ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُــولِ الأَمِينِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، لَمْ يَكُفَّ فِيهَا الرَّسُــولُ ﷺ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّهُ رَسُــولُ اللهِ، وَقَامَ بِغَزَوَاتٍ ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ الرَّافِضِينَ لَهُ وَلِدِينِهِ، وَلَا يَقْبَلُونَ إِلَّا الْقِتَالَ طَمَعًا فِي الْخَلَاصِ مِنْهُ، أَرْسَلَ السَّــرَايَا إِلَى الْقَبَائِلِ يُخَيِّرُهَا بَيْنَ ثَلَاثٍ: إِمَّا الدُّخُولِ فِي دِينِ اللهِ الْحَنِيفِ وَدَفْعِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، أَوِ الْبَقَاءِ عَلَى شِــرْكِهِمْ وَدَفْعِ الْجِزْيَةِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوِ الْحَرْبِ.

وَالآنَ.. وَقَدِ اطْمَأَنَّ الرَّسُــولُ ﷺ إِلَى أَنَّ دَعْوَتَهُ قَدِ انْتَشَرَتْ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا، أَخَذَ يَبْعَثُ بِرَسَائِلِهِ إِلَى مُلُوكِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْجَزِيرَةِ.

حَمَلَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ الأَزْدِيُّ رِسَــالَةً إِلَى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ وَالشَّامِ، يَدْعُوهُ فِيهَا إِلَى الإِسْلَامِ.

عَبَرَ الصَّحَابِــيُّ الْجَلِيلُ الْجِبَالَ وَالْوُدْيَانَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَنُوبِ الشَّــامِ، وَفِي مَكَانٍ اسْــمُهُ مُؤْتَةُ.. قَابَلَهُ شُرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرٍو الْغَسَّــانِيُّ وَهُوَ مِنْ أُمَرَاءِ هِرَقْلَ فِي الشَّامِ فَقَالَ لَهُ:

- إِلَى أَيْنَ؟

أَجَابَ ابْنُ عُمَيْرٍ وَقَالَ:

- إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ.

تَعَجَّبَ شُرَحْبِيلُ مِنْ هَذَا الْبَدَوِيِّ الَّذِي يَسْعَى لِلِقَاءِ هِرَقْلَ، وَقَالَ لَهُ فِي ازْدِرَاءٍ:

- لَعَلَّكَ مِنْ رُسُلِ مُحَمَّدٍ؟

فِي عِزَّةٍ وَفَخْرٍ قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ:

- نَعَمْ.

سَيْطَرَ الشَّيْطَانُ عَلَى شُرَحْبِيلَ؛ فَهَذَا مَبْعُوثُ مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْ جَاءَ يُهَدِّدُ سُلْطَانَهُمْ، وَيُسَاوِي بَيْنَ كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ، وَأَمَرَهُ بِأَلَّا يَسْمَحَ لِعُمَيْرٍ بِتَنْفِيذِ مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ.

هَجَمَ شُرَحْبِيلُ عَلَى عُمَيْرٍ وَأَمْسَكَ بِهِ، وَأَوْثَقَهُ بِالْحِبَالِ وَضَرَبَ عُنُقَهُ! وَمَاتَ ابْنُ عُمَيْرٍ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَصَعِدَتْ رُوحُهُ إِلَى الْجَنَّةِ، تَسْكُنُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ أَخْضَرَ، يَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا.

عَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَبَرِ اسْتِشْهَادِ الْحَارِثِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَأَدْرَكَ أَنَّ الرُّومَ قَدْ أَعْلَنُوا الْحَرْبَ عَلَيْهِ. نَادَى لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَتَجَمَّعَ حَوْلَهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ أَشِدَّاءِ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، جَمِيعُهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِلشَّهَادَةِ أَوِ النَّصْرِ عَلَى مَنْ قَتَلُوا ابْنَ عُمَيْرٍ، وَدِفَاعًا عَنْ كَرَامَةِ الإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

كَانَ مِنْ عَادَةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ غَزْوَةٍ رَايَةً تُسَمَّى اللِّوَاءَ، وَيَخْتَارَ لَوْنًا لِكُلِّ غَزْوَةٍ، وَكَانَ اللِّوَاءُ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَبْيَضَ اللَّوْنِ، أَعْطَاهُ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مُعْلِنًا اخْتِيَارَهُ قَائِدًا لِلْجَيْشِ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ لِمَنْ حَوْلَهُ:

- إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ.. فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ.. فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ قَائِدٌ عَلَى النَّاسِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنْ جُمَادَى الأُولَى مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، تَحَرَّكَ الْجَيْشُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى حَيْثُ قُتِلَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَرَايَتُهُمْ الْبَيْضَاءُ تُرَفْرِفُ فِي الْهَوَاءِ، وَخَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُوَدِّعُونَهُمْ، وَفِي الطَّرِيقِ رَاحَ الرَّسُولُ ﷺ يُوصِي الْمُقَاتِلِينَ بِأَنْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى الإِسْلَامِ أَوَّلًا، فَإِنْ رَفَضُوا وَأَصَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ، وَلَا يَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا عَجُوزًا، وَلَا مُنْعَزِلًا فِي صَوْمَعَةٍ، وَلَا يَقْطَعُوا شَجَرَةً، وَلَا يَهْدِمُوا بِنَاءً.

سَارَ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ الْجَيْشِ حَتَّى مَكَانٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ اسْمُهُ ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ، وَهُنَاكَ.. وَقَفُوا، وَوَاصَلَ الْجَيْشُ طَرِيقَهُ، بَيْنَمَا دَعَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ تُحِيطُ بِهِمْ.. تَدْعُو لَهُمْ وَتَقُولُ:

- صَحِبَكُمُ اللهُ بِالسَّلَامَةِ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إِلَيْنَا صَالِحِينَ غَانِمِينَ.

وَاصَلَ الْجَيْشُ تَحَرُّكَهُ فِي اتِّجَاهِ شَمَالِ أَرْضِ الْحِجَازِ قَاصِدِينَ مُؤْتَةَ حَيْثُ قُتِلَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَهُوَ يَأْمُلُ أَنْ يُفَاجِئَ عَدُوَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزَوَاتِهِ، فَيَكُونُ لَهُمُ النَّصْرُ وَيَعُودُونَ بِالْغَنَائِمِ.

سَارُوا وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَا يَنْتَظِرُهُمْ،؛ فَقَدْ أَدْرَكَ شُرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرٍو الْغَسَّانِيُّ أَنَّ قَتْلَ رَسُولٍ يَعْنِي إِعْلَانَ حَرْبٍ، وَتَأَكَّدَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَابُدَّ أَنْ يُرْسِلَ لَهُ جَيْشًا يُحَارِبُهُ، فَأَعَدَّ جَيْشًا مِنْ مِئَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ جَمَعَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ بَكْرٍ وَلَخْمٍ وَجُذَامٍ، وَبَعَثَ إِلَى هِرَقْلَ فَأَرْسَلَ لَهُ مِئَةَ أَلْفٍ أُخْرَى! وَعَسْكَرَ هَذَا الْجَيْشُ الْعَرَمْرَمُ بِمَكَانٍ اسْمُهُ مَآبٌ بِأَرْضِ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فِي انْتِظَارِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ.

وَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَانٍ اسْمُهُ مَعَانُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وَهُنَاكَ جَاءَتْهُمْ أَخْبَارُ جَيْشِ هِرَقْلَ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ فِي مِئَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ بِخَيْلِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ، فَوَقَفُوا يَتَشَاوَرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ.

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ يَتَوَقَّعُ أَنْ يُقَابِلَ جَيْشًا فِي مِثْلِ هَذَا الْحَجْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ ثَلَاثَةُ آلَافٍ أَمَامَ مِئَتَيْ أَلْفٍ؟ حَارَ الْمُسْلِمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَبَاتُوا فِي مَعَانَ لَيْلَتَيْنِ يُفَكِّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى رَأْيٍ يَرْضَوْنَهُ جَمِيعًا.. وَأَخِيرًا اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيُخْبِرُوهُ بِعَدَدِ عَدُوِّهِمْ؛ لِيَنْظُرَ مَا يَشَاءُ، فَإِمَّا يَبْعَثُ لَهُمْ مَزِيدًا مِنَ الرِّجَالِ أَوْ يَرَى أَمْرًا آخَرَ فَيُنَفِّذُونَهُ، لَكِنَّ الرَّأْيَ لَمْ يُعْجِبْ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَقَالَ:

- يَا قَوْمُ، مِمَّ تَخَافُونَ؟ أَلَمْ تَخْرُجُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ طَلَبًا لِلشَّهَادَةِ؟

صَمَتَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ:

- مُنْذُ مَتَى وَنَحْنُ نُقَاتِلُ بِعَدَدٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ كَثْرَةٍ، وَاللهِ مَا نُقَاتِلُ أَعْدَاءَ اللهِ إِلَّا بِقُوَّةِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ، انْطَلِقُوا يَا جُنُودَ اللهِ فَمَا هِيَ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: النَّصْرُ أَوِ الشَّهَادَةُ.

تَشَاوَرَ الرِّجَالُ ثَانِيَةً فِيمَا قَالَهُ ابْنُ رَوَاحَةَ، وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى رَأْيِهِ، وَتَحَرَّكَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مُؤْتَةَ حَيْثُ قُتِلَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ كَمَا أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُؤْتَةَ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَقْتٌ لِأَنْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى الإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأُوا الْقِتَالَ، كَمَا أَمَرَهُمُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ.

وَالْتَقَى الْجَيْشَـــانِ، ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْعَوْنَ إِلَى الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمِئَتَيْ أَلْفٍ مِنْ جَيْشِ هِرَقْلَ يَدْفَعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَى الْمَوْتِ. فَمَنْ سَيَكُونُ لَهُ الْغَلَبَةُ فِي سَـــاحَةِ الْقِتَالِ: الْكَثْرَةُ مَعَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ أَمِ الْعَدَدُ الْقَلِيلُ الْمُسَلَّحُ بِالإِيمَانِ؟!

وَقَدْ بَشَّرَهُمُ اللهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ!

حَمَلَ زَيْدُ بْـــنُ حَارِثَةَ رَايَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَانْدَفَعَ بِهَا إِلَى قَلْبِ جَيْشِ الرُّومِ، سَـــيْفُهُ فِي يَدِهِ يَعْـــرِفُ طَرِيقَهُ إِلَى رِقَابِهِمْ، كُلَّمَا قَتَلَ مِنْهُمْ وَاحِدًا خَارَتْ قُوَى الْمِئَاتِ مِنْ حَوْلِهِ، وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَزْأَرُونَ كَالأُسُودِ: اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ، وَتَرْتَفِعُ الْهُتَافَاتُ وَصَهِيلُ الْخُيُولِ وَصَلِيلُ السُّـــيُوفِ وَصَرَخَاتُ الْقَتْلَى وَآهَاتُ الْجَرْحَى، لَكِنْ..

مَاذَا يَفْعَلُ ثَلَاثَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مُوَاجَهَةِ مِئَتَيْ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ؟!

صَمَدَ جُنُودُ اللهِ أَمَامَ الْهَجَمَاتِ الشَّرِسَةِ لِلرُّومِ، وَلَمْ يَنْهَزِمُوا وَلَمْ يَتَزَحْزَحُوا مِنْ أَمَاكِنِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَصُـــدُّونَ الْهُجُومَ فِي ثَبَاتٍ وَقُوَّةٍ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ الدِّفَاعُ إِلَى هُجُومٍ وَيَقْتُلُونَ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ الْكَثِيرَ. وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا أَبْطَالُ الإِسْـــلَامِ الَّذِينَ تَتَكَسَّرُ سُـــيُوفُهُمْ مِنْ قُوَّةِ ضَرَبَاتِهِمْ فِي رِقَابِ الْعَدُوِّ؟! وَقَدْ كَسَـــرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَحْدَهُ تِسْعَةَ أَسْيَافٍ وَلَمْ يَتَحَمَّلْ قُوَّةَ ضَرَبَاتِهِ إِلَّا سَيْفُهُ الْيَمَانِيُّ.

ظَلَّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَحْمِلُ رَايَةَ الرَّسُـــولِ ﷺ مُنْدَفِعًا بِسَـــيْفِهِ فِي صُدُورِ وَرِقَابِ الرُّومِ، وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَامًا أَنَّهُ فِي طَرِيقِهِ لِنَيْلِ الشَّـــهَادَةِ وَالصُّعُودِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَحَارَبَ مُسْتَمِيتًا فِي طَلَبِ الشَّهَادَةِ حَتَّى مَزَّقَتْهُ رِمَاحُ الْعَدُوِّ وَسَقَطَ شَهِيدًا.

لَمْ تَسْــقُطْ رَايَةُ الرَّسُــولِ ﷺ فَقَدِ الْتَقَطَهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَرَاحَ يَصُولُ وَيَجُولُ بَيْنَ صُفُوفِ الرُّومِ وَيَقْتُلُ مِنْهُمْ مَنْ يَطُولُهُ سَــيْفُهُ، حَتَّى أَحَاطُوا بِفَرَسِــهِ وَحَاصَرُوهُ، فَأَدْرَكَ أَنَّ هَذِهِ لَحْظَةُ الشَّهَادَةِ.

قَفَزَ الْقَائِدُ الْبَطَلُ مِنْ فَوْقِ حِصَانِهِ إِلَى الأَرْضِ، ضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ وَقَتَلَهُ؛ لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَأْخُذَهُ الرُّومُ بَعْدَ اسْتِشْهَادِهِ وَيُقَاتِلُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ، وَبِكُلِّ الْقُوَّةِ الَّتِي أَعْطَتْهَا لَهُ فَرْحَتُهُ بِقُرْبِ الشَّــهَادَةِ.. رَاحَ يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ هُنَا وَهُنَاكَ يُرْسِلُ جُنُودَ الرُّومِ طَعَامًا لِنَارِ جَهَنَّمَ.

الْتَفَّ الرُّومُ بِكَثْرَتِهِمْ حَوْلَ جَعْفَرٍ، ظَلَّ يُدَافِعُ عَنْ رَايَةِ الإِسْلَامِ حَتَّى قُطِعَتْ يَدُهُ الْيُمْنَى الَّتِي تَحْمِلُهَا، أَمْسَكَهَا بِالْيَدِ الْيُسْرَى فَقُطِعَتْ هِيَ الْأُخْرَى، فَأَمْسَكَ الرَّايَةَ بِسَاعِدَيْهِ حَتَّى اسْتُشْهِدَ، وَفِي جَسَدِهِ أَكْثَرُ مِنْ تِسْعِينَ طَعْنَةً كُلُّهَا مِنَ الأَمَامِ، وَقَبْلَ أَنْ تَسْــقُطَ الرَّايَةُ أَخَذَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، وَوَاصَلَ الْقِتَالَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ هُوَ الآخَرُ. وَلَمْ تَسْقُطِ الرَّايَةُ أَيْضًا فَقَدْ أَخَذَهَا ثَابِتُ بْنُ أَرْقَمَ.

حِينَ اسْتُشْــهِدَ الْقُوَّادُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ وَأَوْصَى لَهُمْ بِالْقِيَادَةِ، شَعَرَ الْمُسْــلِمُونَ بِالْهَزِيمَةِ تَقْتَرِبُ مِنْهُمْ وَخَارَتْ نُفُوسُهُمْ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الرُّومُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَرَاحَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ يَبُثُّ فِيهِمْ رُوحَ الشَّجَاعَةِ وَيَحُثُّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَيَقُولُ لَهُمْ:

- يَا قَوْمُ.. خَيْرٌ لِلإِنْسَــانِ أَنْ يُقْتَلَ وَهُوَ يُوَاجِهُ عَدُوَّهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُقْتَلَ وَهُوَ يَهْرُبُ مِنْهُ.

وَصَاحَ ثَابِتُ بْنُ أَرْقَمَ يَقُولُ:

- أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ.. خُذُوا لَكُمْ قَائِدًا.

قَالُوا وَهُمْ يُدَافِعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ:

- أَنْتَ هُوَ الْقَائِدُ.

رَدَّ ثَابِتُ بْنُ أَرْقَمَ وَقَالَ:

- لَا.

دَفَعَ ثَابِتُ بْنُ أَرْقَمَ الرَّايَةَ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ:

- خُذِ اللِّوَاءَ يَا أَبَا سُفْيَانَ.

رَفَضَ خَالِدٌ أَنْ يَأْخُذَ الرَّايَةَ مِنْ يَدِ ثَابِتِ بْنِ أَرْقَمَ وَقَالَ لَهُ:

- أَنْتَ أَحَقُّ بِهَا مِنِّي، فَأَنْتَ أَكْبَرُ سِنًّا وَقَدْ شَهِدْتَ بَدْرًا.

صَاحَ ثَابِتٌ وَقَالَ:

- خُذْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَوَاللهِ مَا أَخَذْتُهَا إِلَّا لَكَ.

أَخَذَ خَالِدٌ رَايَةَ الرَّسُولِ ﷺ، وَنَجَحَ فِي جَعْلِ الْمُسْلِمِينَ يَصْمُدُونَ طُولَ النَّهَارِ أَمَامَ الْمَوْجَاتِ الْعَاتِيَةِ لِجَيْشِ الرُّومِ دُونَ أَنْ يَنْهَزِمُوا.

وَفِي اللَّيْلِ، حَيْثُ يَضَعُ الْمُقَاتِلُونَ سِلَاحَهُمْ.. رَاحَ الْقَائِدُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يُفَكِّرُ فِي حِيلَةٍ تُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الرُّومِ؛ حَتَّى يَنْسَحِبَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمَامِ جَيْشٍ لَنْ يَقْدِرُوا عَلَى هَزِيمَتِهِ أَبَدًا، فَمَاذَا يَفْعَلُ جَيْشٌ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ أَمَامَ مَوْجَاتٍ مِنَ الْهُجُومِ الْمُتَوَاصِلِ يَقُومُ بِهَا جَيْشٌ مِنْ مِئَتَيْ أَلْفٍ؟ وَكَيْفَ يَنْسَحِبُ دُونَ أَنْ يُطَارِدُوهُ؟

كَانَ خَالِـدٌ يُرِيدُ أَنْ يُنْقِذَ جَيْشَ الْمُسْـلِمِينَ بِطَرِيقَةٍ تَحْفَظُ لَـهُ كِيَانَهُ.. وَتُبْقِي هَيْبَتَهُ، وَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْحِيلَةِ، حِيلَةٍ تَجْعَلُهُ يَنْسَـحِبُ بِجَيْشِـهِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ الَّذِي يَظُنُّ فِيهِ الْعَدُوُّ أَنَّهُ جَاءَتْهُ إِمْدَادَاتٌ جَدِيدَةٌ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ.

اسْتَغَلَّ الْقَائِدُ ظَلَامَ اللَّيْلِ وَطَلَبَ مِنَ الْخَيَّالَةِ أَنْ يَعْمَلُوا جَلَبَةً قَوِيَّةً وَيَنْثُرُوا الْغُبَارَ حَوْلَ الْمُعَسْـكَرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. رَكِبَ الْفُرْسَـانُ خَيْلَهُمْ، رَاحُوا يَمْرَحُونَ حَوْلَ مُعَسْكَرِ الْجَيْشِ، شَـعَرَتِ الْخَيْلُ بِالسَّـعَادَةِ لِرَاحَتِهَا مِنَ الْقِتَالِ فَارْتَفَعَ صَهِيلُهَا عَالِيًا. وَرَاحَتْ تَتَرَاقَـصُ وَتَضْرِبُ الأَرْضَ بِحَوَافِرِهَـا، فَتَعْلُو ذَرَّاتُ التُّرَابِ فِي الْهَـوَاءِ، فَتُوحِي لِمَنْ يَرَاهَـا بِحَرَكَةِ خَيْلٍ كَثِيرٍ. وَفِي نَفْـسِ الْوَقْتِ، أَعَادَ تَرْتِيبَ الْقُوَّاتِ فَبَدَّلَ مَوَاقِعَهَا حَتَّى يَرَى الْمُقَاتِلُ الرُّومِيُّ وُجُوهًا لَمْ يَرَها مِنْ قَبْلُ، فَيَتَأَكَّدُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ جَاءَهُمْ مَدَدٌ مِنَ الْقُوَاتِ تُقَاتِلُ مَعَهُمْ.

وَصَلَ صَهِيلُ الْخَيْلِ إِلَى آذَانِ جَيْشِ الرُّومِ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمْ صَوْتُ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ الَّذِي تُحْدِثُهُ تَنَقُّلَاتُ الرِّجَالِ أَثْنَاءَ تَبْدِيلُ مَوَاقِعِهِمْ، فَأَرْسَلُوا مَنْ يَتَسَلَّلُ لِيَنْظُرَ إِلَى الْمُعَسْـكَرِ عَنْ قُرْبٍ. سَـمِعَ صَهِيلَ الْخَيْلِ وَاضِحًا جَلِيًّا، يَقْتَرِبُ وَيَبْتَعِدُ، وَرَأَى الْغُبَارَ وَهُـوَ يَرْتَفِعُ عَالِيًا، وَعَايَنَ حَرَكَةَ الْمُقَاتِلِيـنَ هُنَا وَهُنَاكَ، فَدَبَّ الْخَوْفُ فِي نَفْسِهِ، وَأَسْرَعَ يُخْبِرُ قَادَةَ جَيْشِهِ بِمَا رَأَى.

دَبَّ الْخَوْفُ فِي نُفُوسِهِمْ فَقَدْ فَطِنُوا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ جَاءَهُمُ الْمَزِيدُ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ، وَبَاتُوا يَعْمَلُونَ لِجَيْشِ الْمُسْـلِمِينَ أَلْفَ حِسَـابٍ، فَالْقِلَّةُ الْقَلِيلَـةُ الَّتِي تُقَاتِلُهُمْ صَمَدَتْ سِـتَّةَ أَيَّامٍ دُونَ هَزِيمَةٍ فَمَا بَالُكَ لَوْ زَادَ عَدَدُهُمْ.. بِالتَّأْكِيدِ سَـيَنْتَصِرُونَ.

وَبَاتُــوا لَيْلَتَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ فِي الْغَدِ حِينَ يَلْتَقِي الْجَيْشَــانِ، وَصَارَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَتَوَقَّعُ مَوْتَهُ فِي الصَّبَاحِ.

وَحِينَ جَاءَ النَّهَارُ وَالْتَحَمَ الْجَيْشَانِ، الْمُسْلِمُونَ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ لَا يَهَابُونَ الْمَوْتَ، وَالْكُفَّارُ مُتَخَاذِلُونَ خَوْفًا مِنْ بَسَــالَتِهِمُ الَّتِي دَفَعُــوا ثَمَنًا لَهَا الْكَثِيرَ مِنَ الأَرْوَاحِ فِي الأَيَّامِ السَّابِقَةِ. وَتَتَطَايَرُ رُؤُوسُهُمْ وَتُقْطَعُ أَطْرَافُهُمْ وَتَتَمَزَّقُ أَجْسَادُهُمْ.. كُلُّ هَذَا يَفْعَلُهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ أَسَدٍ مِغْوَارٍ يَزْأَرُونَ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي مُوَاجَهَةِ جَيْشٍ مِنْ مِئَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ خَائِفِينَ.

لَمْ يُدْرِكِ الرُّومُ أَنَّ أُسُــودَ الإِسْــلَامِ يَتَرَاجَعُونَ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ، وَحِينَ اكْتَشَفُوا الأَمْرَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَخْدَعُونَهُمْ وَيَسْــتَدْرِجُونَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَسْوَأُ مِنْ حَالِهِمْ، فَتَوَقَّفُوا عَنْ قِتَالِهِمْ وَعَادُوا إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ، وَلَمْ يُفَكِّرُوا فِي مُطَارَدَتِهِمْ.

وَهَكَذَا عَادَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِجَيْشِ الْمُسْــلِمِينَ، وَلَمْ يَفْقِدْ أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، لَا هُوَ مُنْتَصِرٌ، وَلَا هُوَ مَهْزُومٌ، وَإِنْ كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ انْسِحَابٌ بِطَعْمِ النَّصْرِ تَسَبَّبَ فِيهِ ذَكَاءُ خَالِدٍ الْعَسْــكَرِيُّ، الَّذِي لَوْلَاهُ مَا عَادَ أَحَدٌ، فَكَيْفَ يَنْتَصِرُ جَيْشٌ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ فِي مُوَاجَهَةِ جَيْشٍ مِنْ مِئَتَيْ أَلْفٍ؟!

فَتْحُ مَكَّةَ

نَحْنُ الآنَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، لَكِنَّنَا سَنَعُودُ مُؤَقَّتًا إِلَى السَّنَةِ السَّادِسَةِ حِينَ تَاقَتْ نَفْسُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، أَحَبِّ أَرْضِ اللهِ إِلَى قَلْبِهِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهَا مُعْتَمِرًا، وَانْتَظَرَ الأَشْهُرَ الْحُرُمَ، الَّتِي لَوْ لَقِيَ الْوَاحِدُ فِيهَا أَلَدَّ أَعْدَائِهِ، لَا يَحِقُّ لَهُ قِتَالُهُ.

أَرْسَلَ إِلَى الْقَبَائِلِ غَيْرِ الْمُسْلِمَةِ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ لِلْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللهِ آمِنِينَ غَيْرَ مُقَاتِلِينَ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَاكِبًا نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ يَقُودُ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِئَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِمْ مِنَ الأَعْرَابِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى بَيْتِ اللهِ، يَسُوقُونَ هَدْيَهُمْ أَمَامَهُمْ، وَلَا يَحْمِلُونَ سِلَاحًا إِلَّا سِلَاحَ الْمُسَافِرِ، حَتَّى يَعْلَمَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ زَائِرًا وَلَيْسَ غَازِيًا.

عَرَفَتْ قُرَيْشٌ بِقُدُومِ الرَّسُولِ زَائِرًا لِبَيْتِ اللهِ، لَكِنَّهُمْ خَافُوا أَنْ تَكُونَ خُدْعَةً مِنْهُ لِقِتَالِهِمْ، فَأَرْسَلُوا جَيْشًا يَنْتَظِرُهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ دُخُولِهَا.

لَمْ يَرْضَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَدْخُلَ فِي حَرْبٍ لَمْ يَسْتَعِدَّ لَهَا، اجْتَمَعَ الْعُقَلَاءُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ وَاتَّفَقُوا عَلَى هُدْنَةٍ مِنَ الْحَرْبِ لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، بِشَرْطِ أَنْ يَرْجِعَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنْ يَأْتُوا فِي الْعَامِ الْقَادِمِ؛ حَتَّى لَا يَقُولَ الْعَرَبُ: إِنَّهُ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ رَغْمًا عَنْ قُرَيْشٍ، وَتَضِيعَ هَيْبَتُهُمْ بَيْنَ الْعَرَبِ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَعَ قُرَيْشٍ يَكُونُ، وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَعَ مُحَمَّدٍ فَهُوَ مَعَهُ.

فَاخْتَارَتْ قَبِيلَةُ خُزَاعَةَ أَنْ تَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاخْتَارَتْ قَبِيلَةُ بَكْرٍ أَنْ تَكُونَ مَعَ قُرَيْشٍ. وَكَانَ بَيْنَ الْقَبِيلَتَيْنِ عَدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ، هَدَأَتْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَنَسِيَهَا الرِّجَالُ، وَحَلَّ السَّلَامُ بَيْنَهُمَا بِفَضْلِ الْمُعَاهَدَةِ مَعَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ.

عَادَ الرَّسُولُ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ أَمِنَ قُرَيْشًا وَجَيْشَهَا وَتَفَرَّغَ لِلدَّعْوَةِ.

وَدَارَتِ الأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَجَاءَتِ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَنَادَى الرَّسُولُ ﷺ فِي النَّاسِ حَتَّى يَتَجَهَّزُوا لِقَضَاءِ الْعُمْرَةِ، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ أَلْفَانِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَرَكِبَ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ وَقَادَ الْجَمِيعَ فِي طَرِيقِهِمْ زُوَّارًا إِلَى بَيْتِ اللهِ، يَسُوقُونَ أَمَامَهُ سِتِّينَ نَاقَةً هَدْيًا.

قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ الرَّسُولُ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَنْ يَغْدِرُوا بِهِمْ، فَأَرْسَلَ مِئَةَ فَارِسٍ مُسَلَّحٍ يَسْبِقُونَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَأَمَرَهُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا مَكَّةَ؛ حَتَّى لَا يَظُنَّ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُمْ جَاءُوا لِقِتَالِهِمْ، وَحِينَ وَصَلَ الْفُرْسَانُ إِلَى حُدُودِ مَكَّةَ وَتَأَكَّدُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَغْدِرُوا بِالْمُسْلِمِينَ، مَالُوا إِلَى أَحَدِ الْوُدْيَانِ وَوَاصَلَ الرَّسُولُ ﷺ طَرِيقَهُ وَدَخَلَ مَكَّةَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقُلُوبُهُمْ تَرْقُصُ فَرَحًا بِدُخُولِ مَكَّةَ آمِنِينَ.

عَرَفَتْ قُرَيْشٌ بِقُدُومِ الرَّسُولِ ﷺ، فَأَخْلَوْا مَكَّةَ لِلرَّسُولِ ﷺ وَصَعِدُوا إِلَى الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهَا تَنْفِيذًا لاتِّفَاقِ الْعَامِ الْمَاضِي، وَرَاحَتْ عُيُونُهُمْ تُرَاقِبُ مُحَمَّدًا ﷺ وَهُوَ يَسِيرُ بِرِفَاقِهِ إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ وَأَصْوَاتُهُمْ تُدَوِّي فِي السَّمَاءِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ تَخْتَرِقُ آذَانَهُمْ وَتُصِمُّ أَسْمَاعَهُمْ.

أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ سَيَعُودُونَ قَرِيبًا. وَازْدَادُوا قُوَّةً حِينَ أَسْلَمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ وَعَمْرُو ابْنُ الْعَاصِ. وَازْدَادَ الْقُرَشِيُّونَ عِنَادًا وَمَكْرًا وَدَهَاءً، وَبَاتُوا يُفَكِّرُونَ فِي طَرِيقَةٍ يَنْقُضُونَ بِهَا عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. لَكِنَّ خَوْفَهُمْ مِنْ قُوَّةِ جَيْشِهِ كَانَتْ تَمْنَعُهُمْ.

وَالآنَ، وَقَدْ عُدْنَا إِلَى السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَجَاءَتْ أَخْبَارُ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ وَانْسِحَابِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ مِنْ قِتَالِ جَيْشِ الرُّومِ إِلَى الْقُرَشِيِّينَ، فَظَنُّوا أَنَّ الرُّومَ قَدْ غَلَبُوا جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمُ الآنَ قَادِرُونَ عَلَى هَزِيمَتِهِ، فَأَرْسَلُوا عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ وَعَدَدًا كَبِيرًا مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يُذَكِّرُونَ بَنِي بَكْرٍ بِعَدَاوَتِهِمُ الْقَدِيمَةِ لِبَنِي خُزَاعَةَ وَالَّتِي كَانُوا قَدْ نَسَوْهَا، وَرَاحُوا يُحَرِّضُونَهُمْ لِلأَخْذِ بِثَأْرِهِمْ، وَيُؤَكِّدُونَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيُسَاعِدُونَهُمْ بِالْمَالِ وَالسِّلَاحِ وَالرِّجَالِ، حَتَّى هَاجَ الثَّأْرُ فِي قُلُوبِ بَنِي بَكْرٍ وَنَسَوُا الْمُعَاهَدَةَ، وَقَرَّرُوا أَنْ يُقَاتِلُوا بَنِي خُزَاعَةَ.

طَارَدَ نَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدُّؤَلِيُّ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُقَاتِلِي بَنِي بَكْرٍ وَقُرَيْشٍ بَنِي خُزَاعَةَ حَتَّى دَخَلُوا الْحَرَمَ، الَّذِي يَعْرِفُ الْعَرَبُ جَمِيعًا أَنَّ مَنْ دَخَلَهُ فَهُوَ آمِنٌ، لَكِنَّ بَنِي بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ نَسَوْا ذَلِكَ، وَرَاحَ نَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يُحَرِّضُ الْمُقَاتِلِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَصَاحَ بَنُو خُزَاعَةَ وَقَالُوا لَهُ نَاصِحِينَ يُحَذِّرُونَهُ مِنْ غَضَبِ اللهِ:

- يَا نَوْفَلُ.. إِنَّا قَدْ دَخَلْنَا الْحَرَمَ.

رَدَّ نَوْفَلٌ فِي غَضَبٍ وَثَوْرَةٍ وَقَالَ:

- لَا إِلَهَ لَهُ الْيَوْمَ!!

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْمِهِ وَقَالَ آمِرًا:

- يَا بَنِي بَكْرٍ.. خُذُوا ثَأْرَكُمْ.

هَجَمَ بَنُو بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ عَلَى بَنِي خُزَاعَةَ الَّذِين احْتَمَوْا فِي الْحَرَمِ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا مِنْهُمْ عِشْرِينَ.

أَرْسَلَتْ بَنُو خُزَاعَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَشْكُونَ إِلَيْهِ مَا فَعَلَتْهُ بِهِمْ قُرَيْشٌ وَبَنُو بَكْرٍ. فَرَأَى الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَقَضَتِ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُ قَدْ آنَ الأَوَانُ لِفَتْحِ مَكَّةَ.

وَنَدِمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مَا فَعَلَتْ، وَأَرْسَلُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ، يَعْتَذِرُ عَمَّا فَعَلَهُ الشَّبَابُ مِنْهُمْ، وَيَطْلُبُ تَجْدِيدَ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَفَضَ، وَعَادَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ.

قَرَّرَ الرَّسُولُ ﷺ أَلَّا يَتْرُكَ لِلْمُشْرِكِينَ وَقْتًا يَسْتَعِدُّونَ فِيهِ لِلْقِتَالِ، فَأَخَذَ فِي إِعْدَادِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُعْمِيَ عُيُونَهُمْ عَنْ أَخْبَارِهِ؛ حَتَّى يُفَاجِئَهُمْ وَيَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ.

وَفِي الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ لِلسَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، تَحَرَّكَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَشْرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، يَقُودُهُمُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَهُوَ يَتَمَنَّى أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْمُشْرِكُونَ، وَيُحَرِّرَ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامِ مِنْ قَبْضَتِهِمْ دُونَ أَنْ يُضْطَرَّ لِقِتَالِهِمْ، وَقَدْ سَمِعَ اللهُ دُعَاءَهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَيَّ خَبَرٍ عَنْ قُدُومِهِ إِلَيْهِمْ، بَلْ كَانُوا فِي جِدَالٍ وَحِوَارٍ مَعَ بَعْضِهِمْ مُنْذُ أَنْ عَادَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ

رَفْضَ الرَّسُــولِ ﷺ تَجْدِيدَ الْعَهْدِ بَيْنَهُمْ، وَظَلُّوا يَتَنَاقَشُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ لِمُوَاجَهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنْ جَاءَ بِجَيْشِهِ لِغَزْوِهِمْ.

كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَسْــلَمَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، لَكِنَّهُ كَتَمَ إِسْــلَامَهُ وَلَمْ يُعْلِنْهُ، وَحِينَ عَادَ إِلَى مَكَّةَ أَسْــلَمَ أَهْلُ بَيْتِهِ جَمِيعًا وَلَمْ يُعَرِّفْ أَحَدًا، وَحِينَ عَرَفَ مِنَ الْمُشْــرِكِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَادِمٌ إِلَيْهِمْ، قَرَّرَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَكَّةَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ، عَلَى أَمَــلِ أَنْ يُقَابِلَهُ فِي الطَّرِيقِ فَيَنْضَمَّ إِلَيْهِ، أَوْ يَصِلَ إِلَيْــهِ فِي الْمَدِينَةِ إِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا. فَتَجَهَّزُوا جَمِيعًا وَانْتَظَرُوا حُلُولَ اللَّيْلِ وَأَخَذُوا طَرِيقَهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ.

خَرَجَ الْعَبَّاسُ وَأَهْلَهُ مِنْ مَكَّةَ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ وَأَخَذُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، لَمْ يَبْتَعِدُوا كَثِيرًا حَتَّى الْتَقَوْا بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ، فَعَادُوا مَعَهُ، وَحِينَ وَصَلُوا إِلَى مَكَانٍ اسْــمُهُ مَرُّ الظَّهْرَانِ عَلَى أَطْرَافِ مَكَّةَ، قَرَّرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَبِيتُوا لَيْلَتَهُــمْ فِيهِ، وَبَعْدَ أَنْ نَصَبَ الرِّجَالُ خِيَامَهُمُ الَّتِي غَطَّتْ رِمَالَ الْوَادِي، أَمَرَهُمْ أَنْ يُوقِدَ كُلُّ مُقَاتِلٍ شُعْلَةَ نَارٍ أَمَامَ خَيْمَتِهِ. وَلَمْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَ هُنَاكَ عَشَرَةُ آلَافِ شُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، أَضَاءَتِ الْوَادِيَ كُلَّهُ!!

رَأَتْ قُرَيْشٌ نِيرَانَ جَيْشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْبُعْدِ، فَشَعَرَتْ بِالْخَطَرِ، فَأَرْسَلَتْ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَبُدَيْلَ بْنَ وَرْقَاءَ، وَحَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ قَرِيبَ خَدِيجَةَ زَوْجَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَطْلِعُونَ حَجْمَ الْخَطَرِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِمْ، وَحِينَ رَأَوْا نِيرَانَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرْبٍ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فِي فَزَعٍ:

- مَا رَأَيْتُ نِيرَانًا مِثْلَ هَذِهِ النِّيرَانِ مِنْ قَبْلُ.

قَالَ بُدَيْلٌ يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ:

- رُبَّمَا كَانَتْ خُزَاعَةُ تَسْتَعِدُّ لِحَرْبِ بَنِي بَكْرٍ.

عَلَّقَ أَبُو سُفْيَانُ قَائِلًا، وَالْخَوْفُ مَا زَالَ يَمْلَأُ قَلْبَهُ:

- خُزَاعَةُ أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانُهَا.

وَكَانَ الْعَبَّاسُ قَدْ رَكِبَ بَغْلَةَ الرَّسُولِ الْبَيْضَاءَ وَرَاحَ يَتَفَقَّدُ الْجَيْشَ، فَسَمِعَ صَوْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَعَرَفَهُ، وَنَادَاهُ قَائِلًا:

- يَا أَبَا حَنْظَلَةَ.

رَدَّ أَبُو سُفْيَانُ مُنْدَهِشًا وَقَالَ:

- أَبُو الْفَضْلِ!!!

ثُمَّ سَأَلَ قَائِلًا:

- مَا وَرَاءَكَ؟

رَدَّ الْعَبَّاسُ وَقَالَ:

- هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَشْرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ مَهْمُومًا:

- وَمَا الْحِيلَةُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟

طَلَبَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ أَنْ يَرْكَبَ بَغْلَةَ الرَّسُولِ خَلْفَهُ، وَسَارَ بِهِ بَيْنَ صُفُوفِ خِيَامِ الْجَيْشِ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَى خَيْمَةٍ عَرَفَ صَاحِبُهَا الْبَغْلَةَ وَتَرَكَهَا تَمُرُّ فِي سَلَامٍ. وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ يُدِيرُ نَظَرَهُ يَمِينًا وَيَسَارًا وَبَغْلَةُ الرَّسُولِ

تَخْتَرِقُ بِهِ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ الْخِيَامِ، فَرَأَى آلَافَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُسْتَعِدِّينَ لِلشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَتَأَكَّدَ وَهُوَ الْقَائِدُ الَّذِي قَاتَلَ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ هُنَا وَهُنَاكَ، أَنَّ قُرَيْشًا بِمَا تَمْلِكُ لَا تَقْدِرُ عَلَى هَزِيمَةِ هَذَا الْجَيْشِ أَبَدًا، وَرَاحَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَحْصُلَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى وَعْدٍ بِأَمَانِ قُرَيْشٍ وَمَنْ فِيهَا.

وَوَاصَلَتِ الْبَغْلَةُ الْبَيْضَاءُ سَيْرَهَا، حَتَّى مَرَّتْ بِخَيْمَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَعَرَفَهَا وَعَرَفَ مَنْ يَرْكَبُهَا، فَأَسْرَعَ إِلَى خَيْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ الْعَبَّاسَ وَأَبَا سُفْيَانَ قَدْ سَبَقَاهُ إِلَيْهِ، فَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَطَلَبَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِضَرْبِ عُنُقِ أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ:

- أَنَا قَدْ أَجَرْتُهُ (أَمَّنْتُهُ عَلَى نَفْسِهِ) يَا رَسُولَ اللهِ.

أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ أَنْ يَذْهَبَ بِأَبِي سُفْيَانَ الآنَ، وَأَنْ يُحْضِرَهُ إِلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ، فَأَطَاعَ الرَّجُلُ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَخَرَجَ بِصَاحِبِهِ مِنْ خَيْمَتِهِ.

وَحِينَ جَاءَ الصَّبَاحُ، أَخَذَ الْعَبَّاسُ أَبَا سُفْيَانَ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى خَيْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ قَادَةَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَأَمَامَهُمْ جَمِيعًا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لأَبِي سُفْيَانَ:

- وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ.. أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟

أَجَابَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ، وَاللهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ، مَا فَعَلَ شَيْئًا.

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

- أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟

رَدَّ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ:

- أَمَّا هَذِهِ فَإِنَّ وَاللهِ فِي النَّفْسِ مِنْهَا شَيْئًا.

ثَارَ الْعَبَّاسُ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ وَقَالَ لَهُ:

- أَسْلِمْ وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ.

شَهِدَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا.

أَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّهُ وَقَالَ:

- نَعَمْ.. مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

اصْطَحَبَ الْعَبَّاسُ صَاحِبَهُ وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَرَّا ثَانِيَةً بَيْنَ الْقُوَّاتِ.. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِلْعَبَّاسِ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ:

- يَا عَبَّاسُ.. وَاللهِ لَا أَحَدَ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْجَيْشِ أَبَدًا.

صَمَتَ قَلِيلًا وَقَالَ:

- لَقَدْ صَارَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْيَوْمَ عَظِيمًا.

رَدَّ الْعَبَّاسُ قَائِلًا:

- إِنَّهُ لَيْسَ بِمُلْكٍ يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ.

هَزَّ أَبُو سُفْيَانَ رَأْسَهُ مُوَافِقًا وَهُوَ يَقُولُ:

- نَعَمْ.. إِنَّهَا النُّبُوَّةُ.

كَانَا قَدْ وَصَلَا إِلَى أَطْرَافِ الْجَيْشِ، تَرَكَ الْعَبَّاسُ صَاحِبَهُ وَعَادَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَهُوَ يَصِيحُ فِي النَّاسِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَيَقُولُ:

- يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.. هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِجَيْشٍ لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ.

أَسْرَعَ النَّاسُ بِالدُّخُولِ إِلَى دَارِ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى امْتَلَأَتْ، فَرَاحُوا إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَتَزَاحَمُوا فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَكَانًا لَهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ دَخَلَ دَارَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ.

وَسَارَ الرَّسُولُ ﷺ بِجَيْشِهِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَحِينَمَا صَارَ عَلَى أَبْوَابِهَا وَتَأَكَّدَ أَنَّ الْقُرَشِيِّينَ قَدِ اسْتَسْلَمُوا وَلَنْ يُقَاوِمُوا، انْحَنَى وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ شُكْرًا لله، لَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَفْقِدْ حَذَرَهُ، وَقَرَّرَ أَنْ يَحْتَاطَ إِلَى أَيَّةِ مُفَاجَأَةٍ، وَرُبَّمَا تَكُونُ هُنَاكَ مُقَاوَمَةٌ فِي شَوَارِعِ مَكَّةَ.

قَسَّمَ الرَّسُولُ الْقَائِدُ ﷺ جَيْشَهُ إِلَى أَرْبَعِ فِرَقٍ وَأَبْنَاءَ الْقَبَائِلِ الْمُتَحَالِفَةِ مَعَهُ فِرْقَتَيْنِ، الأُولَى بِقِيَادَةِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَيَدْخُلُ مَكَّةَ مِنْ طَرِيقِ مِنًى، وَالثَّانِيَةُ يَقُودُهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَيَدْخُلُ مَكَّةَ مِنْ طَرِيقِ الْيَمَنِ، وَالثَّالِثَةُ مِنَ الأَنْصَارِ وَيَقُودُهَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَيَدْخُلُ مَكَّةَ مِنْ طَرِيقِ جُدَّةَ، أَمَّا الرَّابِعَةُ فَيَقُودُهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَيَدْخُلُ مَكَّةَ

مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ، وَسَيَهْبِطُ مَعَهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَ الْجَيْشُ، أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ جَمِيعَ الْفِرَقِ أَلَّا يُقَاتِلُوا إِلَّا إِذَا اضْطُرُّوا لِلْقِتَالِ.

وَرَكِبَ الرَّسُولُ ﷺ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ، وَتَحَرَّكَتِ الْفِرَقُ الأَرْبَعُ لِلدُّخُولِ إِلَى مَكَّةَ. فَلَمْ تَجِدْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ أَيَّةَ مُقَاوَمَةٍ، إِلَّا فِرْقَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛ فَقَدْ كَانَ فِي انْتِظَارِهَا عَدَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يَقُودُهُمْ صَفْوَانُ وَسُهَيْلٌ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَرَاحُوا يَقْذِفُونَهُمْ بِالنِّبَالِ، لَكِنَّهُمْ هَرَبُوا أَمَامَ جَسَارَةِ خَالِدٍ وَبُطُولَةِ رِجَالِهِ.

وَقَفَ الرَّسُولُ ﷺ فِي وَادِي مَكَّةَ يَنْظُرُ إِلَى الْجِبَالِ وَشِعَابِهَا الْمُحِيطَةِ بِهِ، لَقَدْ عَادَ عَزِيزًا مُنْتَصِرًا إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي آذَاهُ قَوْمُـهُ وَعَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ، فَصَاحَ يَقُولُ:

- جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

وَجَّهَ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، طَافَ حَوْلَهُ سَـبْعَ مَرَّاتٍ، وَالْمُشْرِكُونَ يَنْتَظِرُونَ مَاذَا سَيَفْعَلُ بِهِمْ، وَحِينَ انْتَهَى مِنْ طَوَافِهِ، سَأَلَهُمْ قَائِلًا:

- يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟

قَالُوا:

- أَخٌ كَرِيمٌ.. وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

- اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

عَفَا الرَّسُـولُ الْكَرِيمُ ﷺ عَمَّنْ عَذَّبُوهُ، وَتَآمَرُوا عَلَى قَتْلِهِ. وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِ الْكَعْبَةِ مِـنَ الأَصْنَامِ، فَتَمَّ تَحْطِيمُهَا أَمَامَ أَعْيُنِ أَهْلِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ. ثُمَّ رَاحَ إِلَى جَبَلِ الصَّفَا وَوَقَفَ يَدْعُو اللهَ ـ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَيَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ. فَرَآهُ الأَنْصَارُ فَخَافُوا أَنْ يَظَلَّ فِي بَلَدِهِ وَبِجِـوَارِ بَيْتِ اللهِ فَانْتَظَرُوا حَتَّى أَتَمَّ دُعَاءَهُ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا يَظُنُّونَ، فَقَالَ لَهُمْ:

- مَعَاذَ اللهِ، الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ.

أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِلَالًا أَنْ يَصْعَدَ فَوْقَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ وَيُؤَذِّنَ لِلصَّلَاةِ.

صَلُّوا جَمِيعًا فِي بَيْتِ اللهِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ.، وَظَلُّوا يُصَلُّونَ فِيهِ طَوَالَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا أَقَامَهَا الرَّسُولُ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ. وَتَرَكَهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ بِإِرَادَتِهِ، تَرَكَهَا مُسْلِمَةً طَاهِرَةً مِنْ دَنَسِ الأَصْنَامِ.. وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ لِيَعِيشَ وَسَطَ مَنْ آمَنُوا بِهِ وَنَصَرُوهُ وَقَاتَلُوا بِجِوَارِهِ.

بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ.. لَمْ يَذْهَبِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْهَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، طَافَ حَوْلَ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَوَقَفَ بِعَرَفَاتٍ، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ، وَأَشْهَدَ اللهَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ أَتَمَّ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَرَضِيَ لَهُمُ الإِسْلَامَ دِينًا، وَرَمَى الْجَمَرَاتِ وَذَبَحَ هَدْيَهُ وَقَصَّرَ شَعْرَهُ، ثُمَّ لَبِسَ ثِيَابَهُ وَطَافَ حَوْلَ الْبَيْتِ مُوَدِّعًا، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ مُشْهِدًا اللهَ عَلَيْهِمْ، أَنَّهُ أَتَمَّ لَهُمْ دِينَهُمْ، وَرَضِيَ لَهُمُ الإِسْلَامَ دِينًا، وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

مَاتَ الرَّسُولُ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ، وَدُفِنَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ. وَلَمْ يَجِدِ الْمُسْلِمُونَ خَيْرًا مِنَ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ لِخِلَافَتِهِ عَلَى أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الْخِلَافَةِ، وَصَارَ الصِّدِّيقُ الْخَلِيفَةَ الأَوَّلَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

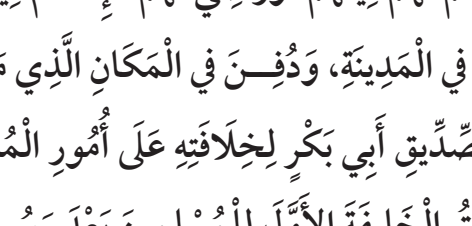

مَعْرَكَةُ الْيَمَامَةِ

حِينَ انْتَشَرَ خَبَرُ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمُبَايَعَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ خَلِيفَةً لَهُ، لَعِبَ الشَّيْطَانُ فِي عُقُولِ النَّاسِ فِي طُولِ الْجَزِيرَةِ وَعَرْضِهَا، وَأَضْعَفَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَبَعْضُهُمْ تَرَكَ الصَّلَاةَ، وَبَعْضُهُمْ حَافَظَ عَلَيْهَا لَكِنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ دَفْعِ الزَّكَاةِ، بَيْنَمَا ارْتَدَّ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ عَنِ الإِسْلَامِ وَعَادُوا إِلَى الْوَثَنِيَّةِ وَعِبَادَةِ الأَصْنَامِ.

لَمْ يَقِفِ الشَّيْطَانُ فِي حَرْبِهِ ضِدَّ الإِسْلَامِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لَكِنَّهُ أَقْنَعَ عَدَدًا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ وَجَنُوبِهَا بِأَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ! وَجَعَلَ النَّاسَ يُصَدِّقُونَهُمْ وَيَصِيرُونَ أَتْبَاعًا لَهُمْ وَجُنُودًا يُحَارِبُونَ مِنْ أَجْلِهِمْ!!

وَأَخَذُوا يُهَاجِمُونَ الْمَدِينَةَ. فَكَانَ لَا بُدَّ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ قِتَالِهِمْ حَتَّى يَعُودُوا إِلَى دِينِ الإِسْلَامِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ.

لَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ جَيْشٌ يُقَاتِلُ بِهِ الْمُتَمَرِّدِينَ وَالْمُتَنَبِّئِينَ؛ فَقَدْ خَرَجَ أُسَامَةُ ابْنُ زَيْدٍ بِالْجَيْشِ لِمُنَاوَشَةِ الرُّومِ فِي الشَّمَالِ، فَبَدَأَ فِي تَأْمِينِ مَدَاخِلِ الْمَدِينَةِ وَالطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ عَلَيْهَا حُرَّاسًا طَوَالَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ثُمَّ بَعَثَ بِرُسُلِهِ إِلَى الْقَبَائِلِ الَّتِي ظَلَّتْ عَلَى إِسْلَامِهَا، يَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تُرْسِلَ مُقَاتِلِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ. وَأَقَامَ مُعَسْكَرًا شَمَالَ الْمَدِينَةِ فِي مَكَانٍ اسْمُهُ ذُو الْقصة لاسْتِقْبَالِ الْمُجَاهِدِينَ، وَرَاحَ يُجَهِّزُ بَقِيَّةَ الصَّحَابَةِ الْمَوْجُودِينَ بِالْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى جَاءَتْ وُفُودُ الْمُقَاتِلِينَ

مِنْ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَمِنَ الْقَبَائِلِ الَّتِي لَمْ تَرْتَدَّ عَنِ الإِسْلَامِ.

بَدَأَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فِي تَقْسِيمِ الْمُجَاهِدِينَ إِلَى جُيُوشٍ، حَتَّى صَارَ لَدَيْهِ أَحَدَ عَشَرَ جَيْشًا، تَتَرَاوَحُ أَعْدَادُ كُلٍّ مِنْهُمْ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ وَالْخَمْسَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، كُلٌّ مِنْهُمْ مُسْتَعِدٌّ لِلْمَوْتِ فِي سَبِيلِ دِينِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ جَيْشٍ قَائِدًا مِنْ عَمَالِقَةِ الْحَرْبِ، وَحَدَّدَ لَهُ مُهِمَّتَهُ.

تَحَرَّكَتِ الْجُيُوشُ فِي طَرِيقِهَا لِجِهَادِ الْمُرْتَدِّينَ حَسَبَ خُطَّةِ أَبِي بَكْرٍ، وَتَفَرَّقَتْ فِي طُرُقِ الْجَزِيرَةِ وَدُرُوبِهَا، حَتَّى لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ قَبِيلَةٌ لَمْ يَتَّجِهْ إِلَيْهَا جَيْشٌ، مُهِمَّتُهُ أَنْ يُقَاتِلَ النَّاسَ مِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ.

كَانَ الْجَيْشُ الأَوَّلُ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ مُجَاهِدٍ بِقِيَادَةِ الْمُحَنَّكِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الَّذِي لَمْ يُهْزَمْ أَبَدًا، وَكَانَ مُتَّجِهًا إِلَى قَبَائِلِ طَيِّئٍ وَبَنِي أَسَدٍ ثُمَّ بَنِي تَمِيمٍ فِي الشَّمَالِ.

كَانَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَعْرِفُ أَنَّ قَبِيلَةَ بَنِي حَنِيفَةَ كُلَّهَا قَدْ آمَنَتْ بِمُسَيْلِمَةَ بْنِ حَبِيبٍ الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَادَّعَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ أَشْرَكَهُ مَعَهُ فِي الرِّسَالَةِ!! وَصَدَّقَتْهُ قَبِيلَتُهُ وَالْتَفَّتْ حَوْلَهُ فِي جَيْشٍ وَصَلَ عَدَدُهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، مُرَابِطِينَ لِلدِّفَاعِ عَنْ نَبِيِّهِمُ الْكَذَّابِ؛ لِذَلِكَ أَرْسَلَ لَهُمُ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ جَيْشَيْنِ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا أَرْبَعَةُ آلَافِ مُجَاهِدٍ: الأَوَّلُ بِقِيَادَةِ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَالثَّانِي بِقِيَادَةِ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ.

كَانَتْ وَصِيَّةُ الْخَلِيفَةِ لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ أَنْ يُعَسْكِرَ بِالْقُرْبِ مِنْ قَبِيلَةِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَأَلَّا يَدْخُلَ مَعَ جَيْشِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ فِي حَرْبٍ قَبْلَ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ جَيْشُ شُرَحْبِيلَ بْنِ

حَسَنَة، لَكِنَّ عِكْرِمَةَ تَعَجَّلَ الْقِتَالَ وَلَمْ يَنْتَظِرْ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ جَيْشُ شُرَحْبِيلَ، وَالْتَحَمَ فِي قِتَالٍ مَعَ جَيْشِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَمَاذَا يَفْعَلُ أَرْبَعَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ أَمَامَ مِئَةِ أَلْفٍ؟!

لِذَلِكَ هُزِمَ الْمُسْلِمُونَ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَتَفَرَّقَ مَنْ بَقِيَ عَلَى الْحَيَاةِ فِي الطُّرُقَاتِ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ حَتَّى الْمَدِينَةِ، وَبَلَغَ الْخَبَرُ الْخَلِيفَةَ الصِّدِّيقَ فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا، وَأَرْسَلَ إِلَى عِكْرِمَةَ يُعَنِّفُهُ عَلَى تَسَرُّعِهِ فِي مُحَارَبَةِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَيَأْمُرُهُ بِعَدَمِ دُخُولِ الْمَدِينَةِ بِمَنْ مَعَهُ؛ حَتَّى لَا يَتَسَرَّبَ الْيَأْسُ إِلَى قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَلْتَحِقَ بِالْجُيُوشِ الَّتِي تُحَارِبُ فِي الْيَمَنِ. وَأَرْسَلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ بِأَنْ يُعَسْكِرَ بِالْقُرْبِ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَأَلَّا يُقَاتِلَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِمَدَدٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَوْ بِأَمْرٍ آخَرَ غَيْرِ ذَلِكَ.

خَالَفَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ هُوَ الآخَرُ أَوَامِرَ خَلِيفَتِهِ، وَلَمْ يَنْتَظِرِ الْمَدَدَ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الصِّدِّيقُ؛ فَقَدْ ظَنَّ أَنَّ جَيْشَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ قَدْ أُنْهِكَ مِنْ قِتَالِ جَيْشِ عِكْرِمَةَ ابْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَالْتَحَمَ مَعَهُ فِي قِتَالٍ كَانَتْ نَتِيجَتُهُ أَنْ حَدَثَ لِجَيْشِهِ مَا حَدَثَ لِجَيْشِ عِكْرِمَةَ، وَقُتِلَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ مَنْ قُتِلَ، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ.. وَتَصِلُ الأَخْبَارُ إِلَى الصِّدِّيقِ رضي الله عنه بِهَزِيمَةٍ ثَانِيَةٍ لِجُيُوشِهِ، فَيُرْسِلُ إِلَى شُرَحْبِيلَ وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَمْكُثَ فِي مَكَانِهِ وَأَلَّا يَرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ عَبْقَرِيُّ الْحُرُوبِ الإِسْلَامِيَّةِ يَقُودُ أَرْبَعَةَ آلَافِ مُجَاهِدٍ فِي طَرِيقِهِ لِقِتَالِ مَنِ ارْتَدَّ مِنْ قَبِيلَةِ طَيِّئ، الَّتِي ارْتَدَّ مُعْظَمُهَا. وَكَانَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَحِينَ اقْتَرَبَ الْجَيْشُ مِنْ

قَبِيلَتِهِ، وَأَرَادَ الْقَائِدُ أَنْ يَبْدَأَ الْهُجُومَ عَلَيْهِمْ، قَالَ لَهُ عَدِيٌّ:

- أَعْطِنِي يَوْمًا أُكَلِّمْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

وَرَاحَ عَدِيٌّ إِلَى قَبِيلَتِهِ وَوَقَفَ يُحَادِثُهُمْ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى الإِيمَانِ، حَتَّى وَافَقُوا وَثَبَتُوا عَلَى الإِسْلَامِ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ خَمْسُمِئَةِ مُجَاهِدٍ انْضَمُّوا إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ عَدِيٌّ لِخَالِدٍ:

- هَؤُلَاءِ مِنْ فَرْعِ غَوْثٍ الَّذِي لَمْ يَرْتَدَّ أَهْلُهُ.

وَصَمَتَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ:

- أَعْطِنِي فُرْصَةً أُخْرَى مَعَ فَرْعِ جَدِيلَةَ.

وَافَقَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَرَاحَ عَدِيٌّ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ، فَعَادُوا إِلَى الإِسْلَامِ، وَخَرَجَ مِنْ فَرْعِ جَدِيلَةَ الَّذِينَ لَمْ يَرْتَدُّوا خَمْسُمِئَةِ مُقَاتِلٍ أَيْضًا وَانْضَمُّوا إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي صَارَ خَمْسَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ بِفَضْلِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ.

وَانْطَلَقَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالْجَيْشِ لِقِتَالِ بَنِي أَسَدٍ، وَكَانَ قَائِدُهُمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ قَدْ جَهَّزَ جَيْشًا مِنْ سِتَّةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ لِلِقَاءِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي قِتَالٍ عَنِيفٍ، وَفَرَّ طُلَيْحَةُ الأَسَدِيُّ وَزَوْجَتُهُ إِلَى الشَّامِ، وَتَرَكَ مَنْ بَقِيَ مِنْ جَيْشِهِ طَعَامًا لِسُيُوفِ الْمُجَاهِدِينَ. وَتَمَّ النَّصْرُ لِسَيْفِ اللهِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَجَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِي وَاصَلَ سَيْرَهُ إِلَى بَنِي تَمِيمٍ، وَحِينَ وَصَلَهَا وَجَدَ النَّاسَ قَدْ عَادُوا إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ.. فَلَمْ يُقَاتِلْهُمْ، وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

لَمْ يَكُنْ أَمَامَ الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه إِلَّا أَنْ يُكَلِّفَ خَالِدًا بِقِيَادَةِ جَيْشٍ جَدِيدٍ

لِقِتَالِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ فِي الْيَمَامَةِ، فَجَمَعَ الْقَائِدُ جَيْشَهُ، وانْضَمَّ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يَطْمَعُونَ فِي الشَّهَادَةِ، وَسَارَ الْجَيْشُ فِي طَرِيقِهِ للانْضِمَامِ إِلَى مَا تَبَقَّى مِنْ جَيْشِ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ وَالَّذِي يُعَسْكِرُ بِالْقُرْبِ مِنْ قَبِيلَةِ بَنِي حَنِيفَةَ.

بَعْدَ أَنْ سَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِجَيْشِهِ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الصِّدِّيقُ مَدَدًا آخَرَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ بِقِيَادَةِ سُلَيْطِ بْنِ قَيْسٍ أَحَدِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجَدَّ سُلَيْطٌ فِي سَيْرِهِ حَتَّى لَحِقَ بِجَيْشِ خَالِدٍ، وَوَصَلَ الْجَيْشَانِ إِلَى جَيْشِ شُرَحْبِيلَ، وَصَارَ تَعْدَادُ جَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، يَمْلَأُ الإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ، يَحْرِصُونَ عَلَى الْمَوْتِ كَمَا يَحْرِصُ أَعْدَاؤُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ، تَقَدَّمَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مُرْتَفَعٍ يُطِلُّ عَلَى الْيَمَامَةِ، وَيَكْشِفُ كُلَّ حُصُونِهَا وَأَرَاضِيهَا وَبُيُوتِ أَهْلِهَا. وَحَدَائِقِهَا ذَاتِ الأَسْوَارِ الْعَالِيَةِ، فَعَسْكَرَ فَوْقَهُ، وَرَاحَ يُرَتِّبُ قُوَّاتِهِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

جَعَلَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ، بِالرَّغْمِ مِنْ هَزِيمَتِهِ فِي الْجَوْلَةِ الأُولَى الَّتِي خَاضَهَا ضِدَّ الْمُرْتَدِّينَ، لَكِنَّهُ كَانَ يَثِقُ فِي إِيمَانِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى قِيَادَةِ الرِّجَالِ. وَجَعَلَ زَيْدَ بْنَ الْخَطَّابِ عَلَى الْمَيْمَنَةِ، أَمَّا حُذَيْفَةُ فَقَدْ جَعَلَهُ قَائِدًا عَلَى الْمَيْسَرَةِ، بَيْنَمَا كَلَّفَ سُلَيْطَ بْنَ قَيْسٍ بِقِيَادَةِ الْمُؤَخِّرَةِ. وَظَلَّ هُوَ عَلَى قَلْبِ الْجَيْشِ؛ حَتَّى يُشْرِفَ عَلَى الْوَحَدَاتِ كُلِّهَا.

وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، فَوَضَعَ النِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ دَاخِلَ الْحُصُونِ، وَخَرَجَ يَقُودُ مِئَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ إِلَى مِنْطَقَةٍ تُسَمَّى عَقْرِبَاءَ خَارِجَ

الْيَمَامَةِ، وَرَاحَ هُوَ الآخَرُ يُرَتِّبُ قُوَّاتِهِ لِلْقِتَالِ.

وَالْتَقَى الْجَيْشَانِ، وَانْدَفَعَ مِئَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ يَخْتَرِقُونَ صُفُوفَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُونَ فِيهِمْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَتَغَلَّبَتِ الْكَثْرَةُ عَلَى الْقِلَّةِ، وَتَفَرَّقَ جَمْعُ الْمُجَاهِدِينَ وَتَشَتَّتُوا، لَكِنَّ زَيْدَ بْنَ الْخَطَّابِ وَقَفَ يَحُضُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقِتَالِ، وَيَقُولُ لَهُمْ:

- أَيُّهَا النَّاسُ.. امْضُوا قُدُمًا إِلَى الأَمَامِ.. لَا تَتَرَاجَعُوا.. اضْرِبُوا عَدُوَّكُمْ.

وَنَذَرَ زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ حَتَّى يَنْصُرَهُ اللهُ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَوْ يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الأَبْرَارِ، فَرَاحُوا يَطْلُبُونَ النَّصْرَ أَوِ الشَّهَادَةَ مِنْ مَيْسَرَةِ جَيْشِ الْمُرْتَدِّينَ، وَقَاتَلُوا قِتَالًا عَنِيفًا لَمْ يَشْهَدْهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى قَائِدِ مَيْسَرَةِ الْمُرْتَدِّينَ، فَتَبَارَزَ مَعَهُ زَيْدٌ وَقَتَلَهُ.

حِينَ انْتَشَرَ خَبَرُ مَقْتَلِ قَائِدِ مَيْسَرَةِ جَيْشِ الْمُرْتَدِّينَ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ، ضَعُفَتْ هِمَّتُهُمْ، وَتَرَاجَعَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي الْقِتَالِ. فَهَجَمَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ يَقْطَعُونَ رِقَابَهُمْ، وَظَلَّ زَيْدٌ يُوَاصِلُ قِتَالَهُ حَتَّى تَحَقَّقَتْ لَهُ أُمْنِيَّتُهُ، وَاسْتُشْهِدَ وَصَعِدَتْ رُوحُهُ إِلَى خَالِقِهَا.

وَانْهَارَتْ مَيْمَنَةُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ مَوْتِ قَائِدِهَا، وَهَجَمَ الْمُرْتَدُّونَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَتِهَا، وَاخْتَرَقُوا صُفُوفَهُمْ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ يَقْتُلُونَ فِيهِمْ وَيُرْسِلُونَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، حَتَّى صَاحَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى الأَنْصَارِ يَحُثُّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَحَرَّكَتْ

كَلِمَاتُهُ الدِّمَاءَ فِي عُرُوقِ الأَنْصَارِ، وَعَادَتْ إِلَيْهِمُ الْقُوَّةُ وَالْحَيَوِيَّةُ وَالْعَزِيمَةُ، فَعَادُوا لِلْقِتَالِ ثَانِيَةً، وَصَارُوا يُقَاتِلُونَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، فَيَعْلُو صَوْتٌ آخَرُ يَخْرُجُ قَوِيًّا مِنْ حَنْجَرَةِ أَبِي حُذَيْفَةَ يَقُولُ:

- الْقِتَالَ الْقِتَالَ يَا أَهْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ، وَاسْتُشْهِدَ أَبُو حُذَيْفَةَ وَلَحِقَتْ رُوحُهُ بِالأَرْوَاحِ الَّتِي سَبَقَتْهَا تَمْرَحُ مَعَهَا فِي بَسَاتِينِ الْجَنَّةِ، وَازْدَادَتْ غَيْرَةُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى دِينِهِمْ وَرَسُولِهِمْ، وَاشْتَدَّتْ سَوَاعِدُهُمْ، فَرَاحَتْ تُرْسِلُ الرِّمَاحَ وَالْحِرَابَ تَخْتَرِقُ الأَجْسَادَ الَّتِي دَنَّسَتْهَا الرِّدَّةُ، بَيْنَمَا السُّيُوفُ تَبْرُقُ فِي الْهَوَاءِ تَنْتَقِلُ بَيْنَ الرِّقَابِ وتُطِيحُ بِهَا، وَتُرْسِلُ بِأَرْوَاحِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

لَمْ يَدُمِ الْحَالُ كَثِيرًا، وَتَغَلَّبَتِ الْكَثْرَةُ عَلَى الشَّجَاعَةِ، وَاسْتَطَاعَ الْمُرْتَدُّونَ أَنْ يَرُدُّوا الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَوَاقِعِهِمْ وَأَنْ يَقْتُلُوا مِنْهُمُ الْكَثِيرَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، حَتَّى سَخَّرَ اللهُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ بِأَنْ يَصِيحَ فِي الْمُقَاتِلِينَ وَيَقُولَ لَهُمْ:

- يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ.. زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِالأَفْعَالِ.

وَكَانَ لِذِكْرِ الْقُرْآنِ فِعْلُ السِّحْرِ فِي نُفُوسِ الْمُجَاهِدِينَ، فَثَبَتُوا أَمَامَ هُجُومِ الْمُرْتَدِّينَ، وَصَاحَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِشِعَارِ الْمَعْرَكَةِ بِصَوْتٍ يُدَوِّي فِي السَّمَاءِ: وَامُحَمَّدَاهُ.

وَبِبَرَكَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَاسْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَدَأَ الْمُسْلِمُونَ فِي صَدِّ هُجُومِ الْمُرْتَدِّينَ، وَتَحَوَّلُوا مِنَ الدِّفَاعِ إِلَى الْهُجُومِ، فَهَرَبَ الْمُرْتَدُّونَ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَصَارُوا يُطَارِدُونَهُمْ

حَتَّى حَاصَرُوهُمْ أَمَامَ سُـورِ حَدِيقَةٍ كَبِيرٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْهَرَبِ، وَبَدَأَتِ السُّـيُوفُ وَالرِّمَـاحُ وَالْحِرَابُ عَمَلَهَا فِي رِقَابِهِمْ وَأَجْسَـادِهِمْ، وَكَادَ الْعَدَدُ الْقَلِيلُ الْمُسَـلَّحُ بِالإِيمَانِ أَنْ يَغْلِبَ الْعَدَدَ الْكَبِيرَ الْمُرْتَدَّ عَنْ دِينِ اللهِ، لَوْلَا أَنَّ مُحَكَّمَ بْنَ الطُّفَيْلِ قَائِدَ جَيْشِ الْمُرْتَدِّينَ صَاحَ يَأْمُرُ رِجَالَهُ بِالتَّحَصُّنِ بِالْحَدِيقَةِ، وَفُتِحَتِ الأَبْوَابُ وَأَسْرَعُوا يَهْرُبُونَ إِلَى دَاخِلِ أَسْوَارِ الْحَدِيقَةِ وَغَلَّقُوا الأَبْوَابَ خَلْفَهُمْ.

كَانَ مَنْ هَرَبَ إِلَى دَاخِلِ الْحَدِيقَةِ وَتَحَصَّنَ خَلْفَ أَسْـوَارِهَا تِسْـعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُرْتَدِّينَ، وَحَارَ الْمُسْـلِمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ؛ فَالأَسْـوَارُ عَالِيَةٌ وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى تَسَـلُّقِ الْجُدْرَانِ أَوْ هَدْمِهَا، وَجَاءَهُمُ الْحَلُّ مِنَ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ مُجَابِ الدَّعْوَةِ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ حِينَ قَالَ لَهُمْ:

- يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ.. أَلْقُونِي عَلَيْهِمْ.

كَانَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ ضَئِيلَ الْحَجْمِ نَحِيلَ الْجِسْـمِ، لَكِنَّهُ كَانَ مُقَاتِلًا شَرِسًا.. شُـجَاعًا لَا يَخَافُ الْمَوْتَ، وَحِينَ رَفَضَ الْمُسْـلِمُونَ أَنْ يُلْقُوهُ عَـلَى الْمُرْتَدِّينَ خَوْفًا عَلَيْهِ، أَقْسَـمَ عَلَيْهِمْ بِاللهِ أَنْ يُلْقُوهُ عَلَى الْمُرْتَدِّيـنَ. وَجَلَسَ فِي دِرْعٍ وَرَفَعَهُ الْمُجَاهِدُونَ عَلَى أَسِنَّةِ الرِّمَاحِ حَتَّى صَعِدَ إِلَى قِمَّةِ السُّورِ.

فُوجِئَ الْمُرْتَدُّونَ بِمَنْ يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَفِي يَدَيْهِ سَيْفَانِ يَضْرِبُ بِهِمَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً يَقْتُلُ مَنْ يَلْقَاهُ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْبَابِ لِيَفْتَحَهُ. وَتَكَاثَرَ عَلَيْهِ الْمُرْتَدُّونَ وَظَـلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ وَفَتَحَهُ، بَعْدَ أَنْ أَصَابَتْـهُ ثَمَانُونَ طَعْنَةً مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ

بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةٍ بِسَهْمٍ.

انْدَفَعَ الْمُسْلِمُونَ كَالْأُسُودِ الثَّائِرَةِ إِلَى دَاخِلِ الْحَدِيقَةِ، فَأُصِيبَ الْمُرْتَدُّونَ بِصَدْمَةٍ شَلَّتْ تَفْكِيرَهُمْ، فَلَمْ يَتَخَيَّلُوا أَبَدًا أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ وَيَثْبُتَ لِقِتَالِهِمْ حَتَّى يَفْتَحَ الْبَابَ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ قَاتَلُوا دِفَاعًا عَنْ رِدَّتِهِمْ.. وَظَلُّوا صَامِدِينَ فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى اسْتَطَاعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُرْسِلَ رُمْحًا اخْتَرَقَ رَقَبَةَ مُحَكَّمِ بْنِ الطُّفَيْلِ وَهُوَ يُحَرِّضُهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَخَرَّ صَرِيعًا. فَضَعُفَتْ هِمَّتُهُمْ وَصَارُوا صَيْدًا سَهْلًا لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ رَاحُوا يَخْتَرِقُونَ صُفُوفَهُمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ.

كَانَ وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ، يُقَاتِلُ مِثْلَمَا يُقَاتِلُونَ، يَطْلُبُ النَّصْرَ أَوِ الشَّهَادَةَ كَمَا يَطْلُبُونَ، لَكِنَّهُ يَزِيدُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ ذَنْبٍ فَعَلَهُ حِينَ كَانَ مُشْرِكًا، وَهُوَ قَتْلُهُ لِحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحِينَ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ ذَنْبِهِ، وَقَدْ جَاءَتْهُ الْفُرْصَةُ، يُرِيدُ الآنَ أَنْ يَقْتُلَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ، فَصَارَ يَبْحَثُ عَنْهُ بَيْنَ جُمُوعِ الْمُرْتَدِّينَ حَتَّى رَآهُ، فَصَوَّبَ رُمْحَهُ نَاحِيَتَهُ، هَزَّهُ فِي الْهَوَاءِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ كَالْبَرْقِ، اخْتَرَقَ قَلْبَهُ وَنَفَذَ مِنْ ظَهْرِهِ.

قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْكَذَّابُ عَلَى الأَرْضِ، أَسْرَعَ إِلَيْهِ سَيْفُ الصَّحَابِيِّ أَبِي دُجَانَةَ، صَاحِبِ الْعِصَابَةِ الْحَمْرَاءِ، وَفَصَلَ رَأْسَهُ عَنْ جَسَدِهِ، فَتَدَحْرَجَ تَحْتَ أَقْدَامِ أَصْحَابِهِ. فَوَهَنَتْ عَزِيمَتُهُمْ وَخَارَتْ قُوَاهُمْ وَأَعْلَنُوا اسْتِسْلَامَهُمْ، فَكَفَّ الْمُسْلِمُونَ عَنْ حَرْبِهِمْ.

وَتَابَ مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ عَنْ رِدَّتِهِمْ، وَعَادُوا إِلَى الإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْفٌ وَمِئَتَانِ فَقَطْ، مِنْهُمْ خَمْسُمِئَةٍ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لأَنْ يَقْلَقَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى كِتَابِ اللهِ، فَأَمَرَ بِجَمْعِهِ. وَكَانَ لَهُ مَا أَرَادَ، وَتَمَّ جَمْعُ الْقُرْآنِ.

مَعْرَكَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ

حِينَ كَتَبَ اللهُ النَّصْرَ لِلْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ حَارَبُوا الْمُرْتَدِّينَ وَمُدَّعِي النُّبُوَّةِ، وَعَادَ الاسْتِقْرَارُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِلدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الْوَلِيدَةِ، صَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنْ يَبْدَأَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ نَشْرِ الإِسْلَامِ خَارِجَ حُدُودِ الْجَزِيرَةِ؛ فَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَمْ يُرْسِلْ مُحَمَّدًا إِلَيْهِمْ وَحْدَهُمْ.. لَكِنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ. وَبِالتَّالِي فَالدَّعْوَةُ لِدِينِ اللهِ لَيْسَ لَهَا أَرْضٌ مُحَدَّدَةٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْطَلِقَ الْمُجَاهِدُونَ إِلَى خَارِجِ الْجَزِيرَةِ تَنْفِيذًا لأَمْرِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الأَحَدِ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا.

فَكَّرَ الْخَلِيفَةُ فِي حَالِ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَنْهَكَتْهُمْ حُرُوبٌ اسْتَمَرَّتْ لِمُدَّةِ عَامٍ كَامِلٍ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا، كَيْفَ سَيَغْزُونَ بِلَادًا احْتَلَّتْهَا قُوَّاتُ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، وَسَيَطْرُوا عَلَيْهَا حَتَّى حُدُودِهَا مَعَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ؟

لَمْ يَكُنِ الْخَلِيفَةُ الصِّدِّيقُ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَتَكَاسَلُونَ فِي تَنْفِيذِ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لِذَلِكَ لَمْ تُرْهِبْهُ قُوَّةُ عَدُوِّهِ وَعَدُوِّ رَبِّهِ وَدِينِهِ، وَرَاحَ يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَهُ فِي الدَّعْوَةِ لِلْجِهَادِ مِنْ جَدِيدٍ.

فِي هَذَا الْوَقْتِ، جَاءَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ إِلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ الإِسْلَامَ دَخَلَ قَبِيلَتَهُ الَّتِي تَسْتَقِرُّ فِي شَمَالِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ جَنُوبَ الْعِرَاقِ، وَأَنَّ

أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِقِتَالِ الْفُرْسِ الَّذِينَ يَحْتَلُّونَ الْعِرَاقَ.

وَافَقَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه عَلَى طَلَبِ الْمُثَنَّى، فَعَادَ إِلَى قَوْمِهِ وَرَاحَ يَشُنُّ بِهِمْ غَارَاتٍ عَلَى جُيُوشِ الْفُرْسِ وَيُحَقِّقُ الانْتِصَارَاتِ عَلَيْهِمْ، وَيُرْسِلُ إِلَى الْخَلِيفَةِ يُبَشِّرُهُ بِانْتِصَارَاتِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الأُخْرَى، وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُمِدَّهُ بِالْمُجَاهِدِينَ حَتَّى يُذِلَّ اللهُ بِهِمُ الْمُشْرِكِينَ.

كَانَتْ بِشَارَاتُ النَّصْرِ الَّتِي تَأْتِي مِنْ عِنْدِ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ دَافِعًا لِلْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ أَنْ يُقَرِّرَ غَزْوَ الْفُرْسِ بِالرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقُوَّةِ فُرْسَانِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُجَاهِدِينَ وَإِرْهَاقِهِمْ فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ طَوَالَ الْعَامِ.

وَضَعَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه خُطَّةَ حَرْبٍ رَائِعَةً، تَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَرْتَبِكَ قَادَةُ جُيُوشِ الْفُرْسِ وَلَا يَعْرِفُوا إِلَى أَيْنَ تَتَّجِهُ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُفَاجَأُوا بِهَا تُحِيطُ بِهِمْ، وَتَكُونَ الْغَلَبَةُ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَمْرِ اللهِ.

أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ الْقَائِدُ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي الْيَمَامَةِ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَبْدَأَ بِحَرْبِ الْفُرْسِ فِي الْعِرَاقِ، وَأَنْ يَبْدَأَ بِالْأُبُلَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مَوَانِي الْفُرْسِ عَلَى الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ وَبِهَا قُوَّةٌ كَبِيرَةٌ تَحْمِيهَا. ثُمَّ يُوَاصِلُ غَزَوَاتِهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْحِيرَةِ أَعْظَمِ مُدُنِ فَارِسَ بَعْدَ عَاصِمَتِهِمُ الْمَدَائِنِ.

وَكَتَبَ إِلَى عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ وَكَانَ فِي الْحِجَازِ يَأْمُرُهُ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْمُصَيَّخِ شَمَالَ

الْعِرَاقِ ثُمَّ يَأْخُذُ طَرِيقَهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْحِيرَةِ هُوَ الآخَرُ. وَقَالَ لَهُمَا:

- وَمَنْ يَصِلُ إِلَى الْحِيرَةِ أَوَّلًا.. فَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى صَاحِبِهِ.

وَضَعَ الْخَلِيفَةُ وَالْقَائِدُ الأَكْبَرُ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ قَائِدَيْهِ فِي مُنَافَسَةٍ شَرِيفَةٍ.. مَنْ يَصِلُ الْحِيرَةَ أَوَّلًا فَهُوَ الْقَائِدُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَنْ يَصِلَ أَيٌّ مِنْهُمَا الْحِيرَةَ إِلَّا وَهُوَ مُنْتَصِرٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَاهُ مِنْ جُيُوشِ الْفُرْسِ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا.

وَتَحَرَّكَ الْقَائِدَانِ لِتَنْفِيذِ أَمْرِ الْخَلِيفَةِ؛ خَالِدٌ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ قَاتَلُوا مَعَهُ فِي حَرْبِ الْيَمَامَةِ، وَكَانُوا لَا يَزِيدُونَ عَلَى الأَلْفَيْنِ، وَرَاحَ يَقُودُهُمْ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الأُبُلَّةِ؛ لِيَبْدَأَ مِنْهَا سِلْسِلَةَ فُتُوحَاتٍ جَدِيدَةٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْحِيرَةِ.

وَسَارَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمُصَيَّخِ لِيَبْدَأَ مِنْ هُنَاكَ طَرِيقَ الرُّجُوعِ إِلَى الْحِيرَةِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَدُكَّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ حُصُونٍ لِلْفُرْسِ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ.

أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَنْضَمَّ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى جَيْشِ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ، فَأَطَاعَ الْمُثَنَّى وَسَارَ إِلَى خَالِدٍ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ مُجَاهِدٍ تَحْتَ قِيَادَتِهِ.

تَوَقَّفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي مَكَانٍ اسْمُهُ النِّبَاجُ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْقَبَائِلِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي حَوْلَهُ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُمِدُّوهُ بِالْمُجَاهِدِينَ، فَانْضَمَّ إِلَيْهِ أَلْفٌ مِنْ قَبِيلَةِ طَيِّئٍ وَأَلْفَانِ مِنْ تَمِيمٍ وَثَمَانِيَةٌ مِنْ مُضَرَ وَرَبِيعَةَ، هَذَا غَيْرَ أَرْبَعَةِ آلَافٍ مَعَ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ وَاثْنَانِ مَعَ مَذْعُورِ بْنِ عَدِيٍّ.

صَارَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ يَطْلُبُونَ النَّصْرَ عَلَى الْفُرْسِ أَوِ

الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَأَرْسَلَ بِرِسَالَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى هُرْمُزَ الْفَارِسِيِّ أَمِيرِ مِنْطَقَةِ الأُبُلَّةِ يَطْلُبُ مِنْهُ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ سُيُوفِهِمْ، أَوْ يُوَافِقُ عَلَى دَفْعِ الْجِزْيَةِ، فَإِنْ لَمْ يُوَافِقْ عَلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَيُحَذِّرُهُ قَائِلًا:

- لَقَدْ جِئْتُكَ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَ الْمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ.

تَسَلَّمَ هُرْمُزُ الرِّسَالَةَ.. غَضِبَ وَثَارَ وَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ، فَكَيْفَ يُرْسِلُ لَهُ هَذَا الْعَرَبِيُّ بِرِسَالَةٍ تَحْمِلُ كُلَّ هَذَا التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ؟! وَأَرْسَلَ إِلَى قَائِدِهِ شِيرَوَيْهِ فِي الْمَدَائِنِ يَسْتَأْذِنُهُ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَيَطْلُبُ مِنْهُ الْمَدَدَ بِالْمُقَاتِلِينَ. وَأَرْسَلَ جَوَاسِيسَهُ يَنْظُرُونَ إِلَى جَيْشِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، يَعْرِفُونَ عَدَدَهُ وَعُدَّتَهُ.

حِينَ انْتَشَرَ جَوَاسِيسُ هُرْمُزَ يَتَصَيَّدُونَ أَخْبَارَ جَيْشِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، كَانَ قَدْ قَسَّمَهُ إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: وَاحِدَةٌ يَقُودُهَا الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ، وَالثَّانِيَةُ يَقُودُهَا عَاصِمُ ابْنُ عُمَرَ التَّيْمِيُّ، أَمَّا الْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ فَكَانَتْ تَحْتَ قِيَادَةِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، وَقَدْ بَدَأُوا السَّيْرَ فِي طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ سَيْفُ اللهِ أَنْ يَتَجَمَّعُوا عِنْدَ مَاءٍ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى الْحَفِيرَ فِي مِيعَادٍ مُعَيَّنٍ.

وَحِينَ عَادَ جَوَاسِيسُ هُرْمُزَ إِلَيْهِ، أَخْبَرُوهُ بِحَالِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِأَنَّهُمْ مُتَّجِهُونَ نَحْوَ الْحَفِيرِ. ضَحِكَ سَاخِرًا.. فَمَاذَا يَفْعَلُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْبَدْوِ أَمَامَ جَيْشٍ فَارِسِيٍّ جَرَّارٍ يَعْرِفُ فُنُونَ الْقِتَالِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؟! وَلَمْ يَنْتَظِرِ الْمَدَدَ الْقَادِمَ لَهُ مِنْ كِسْرَى الْفُرْسِ، وَقَرَّرَ أَنْ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمِينَ لِيَنَالَ شَرَفَ هَزِيمَتِهِمْ

وَحْدَهُ، وَأَمَرَ بِإِعْدَادِ الْجَيْشِ وَالتَّحَرُّكِ نَحْوَ الْحَفِيرِ.

وَصَلَ جَيْشُ الْفُرْسِ إِلَى الْحَفِيرِ قَبْلَ أَن يَصِلَ إِلَيْهَا جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ، رَتَّبَ هُرْمُزُ صُفُوفَهُ وَوَقَفَ فِي انْتِظَارِهِمْ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيُفَاجِئُهُمْ بِحَرْبٍ خَاطِفَةٍ وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ.

طَالَ انْتِظَارُ هُرْمُزَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَجَيْشِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ أَخْبَرَتْ عُيُونُ سَيْفِ اللهِ بِسَبْقِ وُصُولِ جَيْشِ الْفُرْسِ إِلَى الْحَفِيرِ، فَأَمَرَ بِأَنْ يُغَيِّرَ الْجَيْشُ طَرِيقَهُ إِلَى كَاظِمَةَ، وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَامًا أَنَّهُ سَيَلْحَقُ بِهِ هُنَاكَ، لَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرْهِقَهُ، وَحِينَ عَلِمَ هُرْمُزُ بِذَلِكَ اسْتَشَاطَ غَضَبًا.. فَكَيْفَ يَلْعَبُ بِهِ هَذَا الأَعْرَابِيُّ؟!

وَأَسْرَعَ بِجَيْشِهِ إِلَى هُنَاكَ. وَاصْطَفَّ الْجَيْشَانِ لِلْقِتَالِ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا إِلَّا مَسَافَةٌ قَصِيرَةٌ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَرَى الآخَرَ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ الْخَوْفَ أَوِ الْعَزِيمَةَ فِي عَيْنَيِ الآخَرِ، تَذَكَّرَ هُرْمُزُ مَا سَمِعَهُ عَنْ قُدْرَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى الْقِتَالِ وَقِيَادَةِ الْجُيُوشِ، وَتَذَكَّرَ مَا كَتَبَهُ لَهُ عَنِ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِثْلَمَا يَتَمَنَّوْنَ هُمُ الْحَيَاةَ، وَقَرَأَ صِدْقَ كُلِّ ذَلِكَ فِي أَعْيُنِ الْمُجَاهِدِينَ الْمُسْتَعِدِّينَ لِلشَّهَادَةِ.

عَادَ بِعَيْنَيْهِ إِلَى جُنُودِهِ يُرَاقِبُهُمْ، قَرَأَ الْخَوْفَ فِي أَعْيُنِهِمْ، أَمَرَ أَنْ يَرْبِطَ كُلُّ عَشَرَةِ فُرْسَانٍ أَنْفُسَهُمْ فِي سِلْسِلَةٍ وَاحِدَةٍ، احْتَجَّ بَعْضُهُمْ عَلَى الأَمْرِ، وَتَسَاءَلُوا قَائِلِينَ:

- كَيْفَ نُقَيِّدُ أَنْفُسَنَا لِعَدُوِّنَا؟!

أَصَرَّ هُرْمُزُ عَلَى أَنْ يُنَفِّذَ جُنُودُهُ الأَمْرَ؛ خَوْفًا مِنْ هُرُوبِهِمْ أَمَامَ هَجَمَاتِ

الْمُسْـلِمِينَ فَنَفَّذُوهُ. خَرَجَ لِيَقِفَ أَمَامَ الصُّفُوفِ بَاحِثًا عَـنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي خَدِيعَةٍ لِيَقْتُلَهُ بِهَا. وَأَخِيرًا اتَّفَقَ مَعَ عَدَدٍ مِنْ جُنُودِهِ الأَشِـدَّاءِ أَنْ يَهْجُمُوا عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حِينَ يَخْرُجُ إِلَيْهِ وَيُبَارِزُهُ فَيَقْتُلُوهُ. وَحِينَ اطْمَأَنَّ عَلَى نَفْسِهِ قَادَ فَرَسَهُ حَتَّى خَرَجَ أَمَامَ صُفُوفِ جَيْشِهِ، وَقَفَ وَقَلَنْسُوَتُهُ الْمُرَصَّعَةُ بِالْجَوَاهِرِ تَتَلَأْلَأُ تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَصَاحَ يَطْلُبُ خَالِدًا لِلنِّزَالِ.

خَرَجَ خَالِدٌ لِلِقَاءِ هُرْمُزَ سَـائِرًا عَلَى قَدَمَيْهِ، نَزَلَ هُرْمُزُ مِنْ فَوْقِ فَرَسِـهِ.. وَسَارَ نَاحِيَةَ خَالِدٍ وَهُوَ يَخْتَالُ بِنَفْسِـهِ، مُطْمَئِنًّا إِلَى الدَّعْمِ الَّذِي سَـيَأْتِيهِ مِنْ قُوَّاتِهِ، تَقَدَّمَ خَالِدٌ مِنْهُ كَالأَسَـدِ لَا يَهَابُ شَـيْئًا، وَطَالَتِ الرِّقَابُ فِي الْجَيْشَـيْنِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَدُورُ، وَالْكُلُّ صَامِتٌ يَتَرَقَّبُ. وَالْتَقَى الرَّجُلَانِ، وَتَقَابَلَ السَّـيْفَانِ، وَتَطَايَرَ الشَّرَرُ فِي الْهَوَاءِ، وَصَدَّتِ الدُّرُوعُ ضَرَبَاتٍ مِنْ هَذَا وَذَاكَ، حَتَّى اسْـتَطَاعَ سَـيْفُ اللهِ أَنْ يَحْتَضِنَ هُرْمُزَ وَيَشُلَّ حَرَكَتَهُ.

أَسْـرَعَتْ مَجْمُوعَةُ الْغَدْرِ الْفَارِسِيِّ لِنَجْدَةِ قَائِدِهِمْ، أَحَاطُوا بِالْمُتَبَارِزَيْنِ حَتَّى اخْتَفَـى خَالِدٌ عَنْ أَنْظَـارِ الْمُجَاهِدِينَ، هَبَّ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْـرٍو لِنَجْدَتِهِ وَالْقِتَالِ بِجَانِبِهِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ وَفَرَّ الْبَاقُونَ إِلَى صُفُوفِ جَيْشِهِمْ، وَهُمْ يَرْتَعِدُونَ خَوْفًا مِنْ سُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ خَاصَّةً وَقَدْ صَارَ قَائِدُهُمْ أَوَّلَ قَتِيلٍ فِي الْمَعْرَكَةِ.

ارْتَفَعَتْ صَيْحَاتُ الْمُسْـلِمِينَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، تُدَوِّي فِي الْفَضَاءِ.. تُرَدِّدُهَا الْجِبَالُ وَالأَشْـجَارُ وَحَبَّاتُ الرِّمَـالِ تَحْتَ أَقْدَامِ الرِّجَالِ، فَرَحًـا بِبِدَايَةِ النَّصْرِ،

وَهَجَمَ الْمُقَاتِلُونَ وَهُمْ يَزْأَرُونَ كَالأُسُودِ عَلَى فُرْسَانِ الْفُرْسِ، وَرَاحَتْ سُيُوفُهُمْ وَرِمَاحُهُمْ تُرْسِلُ بِأَرْوَاحِهِمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ.

أَدْرَكَ الْفُرْسُ أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ، فَحَلُّوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ السَّلَاسِلِ وَأَسْرَعُوا يَهْرُبُونَ. طَارَدَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ مَنْ تَطُولُهُ سُيُوفُهُمْ وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُمْ فَارِسِيٌّ يُقَاتِلُونَهُ، كَفُّوا عَنِ الْمُطَارَدَةِ وَعَادُوا لِيَجْمَعُوا الْغَنَائِمَ الَّتِي تَرَكَهَا الْفُرْسُ خَلْفَهُمْ وَهُمْ يَهْرُبُونَ، أَخَذَ الْبَطَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ خُمُسَهَا وَأَرْسَلَهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ فِي الْمَدِينَةِ وَمِنْ بَيْنِهَا قَلَنْسُوَةُ هُرْمُزَ الَّتِي قَدَّرُوهَا بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.. وَقَسَّمَ الْبَاقِيَ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ.

وَهَكَذَا فَتَحَ اللهُ كَاظِمَةَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَرَاحَ عَقْلُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ مِنَ التَّفْكِيرِ فِي خُطَطِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، وَرَاحَ يُنَفِّذُ وَصَايَا الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ لَهُ بِحُسْنِ مُعَامَلَةِ مَنْ لَمْ يُقَاتِلُوهُ، أَبْقَى النَّاسَ فِي الأَرْضِ يَزْرَعُونَهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِخَيْرَاتِهَا، مَنْ دَخَلَ الإِسْلَامَ مِنْهُمْ حَدَّدَ لَهُ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ، وَمَنْ ظَلَّ عَلَى دِينِهِ فَرَضَ عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ، وَكَانَتْ أَقَلَّ بِكَثِيرٍ مِمَّا كَانَ الْفُرْسُ يَفْرِضُونَهُ عَلَيْهِمْ، فَشَعَرَ النَّاسُ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالإِخَاءِ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ فَتْحَ الْمُسْلِمِينَ لِبِلَادِهِمْ جَاءَ خَيْرًا عَلَيْهِمْ.

مَعْرَكَةُ الْأُبُلَّةِ

وَصَلَتْ أَخْبَارُ هَزِيمَةِ هُرْمُزَ إِلَى الْأُبُلَّةِ، وَتَنَاقَلَ النَّاسُ أَخْبَارَ بُطُولَاتِ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ النَّادِرَةِ، وَتَنَدَّرُوا بِحِرْصِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمَوْتِ وَاقْتِحَامِهِمْ لِصُفُوفِ جَيْشِ الْفُرْسِ فَيَقْتُلُونَهُمْ وَلَا يُصَابُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَدَبَّ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ وَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَدَخَلُوا حِصْنَهُمُ الْمَنِيعَ يَحْتَمُونَ فِيهِ خَوْفًا مِنْ حُضُورِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ.

أَرْسَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَعْقِلَ بْنَ مُقَرِّنٍ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ صَغِيرَةٍ لِفَتْحِ حِصْنِ الْأُبُلَّةِ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْفُرْسَ فِي الْحِصْنِ قَدْ هَزَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْخَوْفِ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ.

كَانَتْ مَدِينَةُ الْأُبُلَّةِ كُلُّهَا حِصْنًا، تُحِيطُ بِهَا الأَسْوَارُ الْعَالِيَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، تَبِيتُ الْحَامِيَةُ الْفَارِسِيَّةُ الَّتِي تَحْرُسُهَا فِي أَبْرَاجِهَا، وَفِي الصَّبَاحِ يَخْرُجُونَ يُعَسْكِرُونَ أَمَامَ الأَبْوَابِ اسْتِعْدَادًا لِلدِّفَاعِ عَنْهَا، وَيَخْرُجُ النَّاسُ لأَعْمَالِهِمْ، وَفِي الْمَسَاءِ.. يَدْخُلُونَ. لَكِنَّهُمْ جَمِيعًا كَانُوا يَتَرَقَّبُونَ وُصُولَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَجَيْشِهِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ خَائِفُونَ.

حِينَ وَصَلَ مَعْقِلُ بْنُ مُقَرِّنٍ وَرِجَالُهُ إِلَى الْحِصْنِ، كَانَ الْوَقْتُ لَيْلًا فَلَمْ يُقَاتِلُوا. وَبَاتُوا حَوْلَ الْحِصْنِ تَحْتَ أَعْيُنِ جَيْشِ الْفُرْسِ الرَّابِضِ فِي الأَبْرَاجِ، وَجَاءَ الصَّبَاحُ وَالْفُرْسُ قَدْ تَأَكَّدُوا أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ لَيْسَ فِي الْجَيْشِ الَّذِي يُحَاصِرُهُمْ، ذَهَبَ الْخَوْفُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَخَرَجُوا لِلْقِتَالِ .

قَاتَــلَ الْمُجَاهِدُونَ جَيْشَ الْفُرْسِ قِتَالَ الأَبْطَالِ طَوَالَ النَّهَارِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَغَلَّبُوا عَــلَى الْفُرْسِ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِــمْ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ لَمْ يَنْكَسِــرُوا، وَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ.. انْفَصَلَ الْمُتَحَارِبُونَ وَعَادَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى مُعَسْكَرِهِ؛ انْتِظَارًا لأَنْ يَأْتِيَ الصَّبَاحُ .

فِي الصَّبَاحِ.. فُوجِئَ جَيْشُ الْفُرْسِ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يَقُودُ جَيْشًــا جَرَّارًا وَيَنْضَمُّ لِجَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِين قَاتَلُوهُمْ بِالأَمْسِ، فَدَبَّ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ وَخَافُوا مِنَ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ وَلَمْ يَخْرُجُوا.

أَخْبَرَ مَعْقِلُ بْنُ مُقَرِّنٍ خَالِدًا أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُــوا إِلَيْهِمْ بِالأَمْسِ وَقَاتَلَهُمْ.. أَدْرَكَ خَالِدٌ أَنَّهُمْ خَائِفُونَ مِــنْ وُجُودِهِ. فَكَّرَ فِي حِيلَةٍ يُخْرِجُهُــمْ بِهَا مِنَ الْحِصْنِ حَتَّى يَسْــتَطِيعَ قِتَالَهُمْ، وَعَلَى الْفَوْرِ أَمَرَ بِالتَّحَرُّكِ بِجَيْشِهِ مِنْ أَمَامِ الْحِصْنِ آخِذًا طَرِيقَ الْحِيرَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَعْيُنَ الْفُرْسِ تُرَاقِبُهُ مِنَ الأَبْرَاجِ.

اخْتَفَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنِ الأَعْيُنِ الْمُرَاقِبَةِ، فَظَنُّوا أَنَّهُ وَاصَلَ طَرِيقَهُ إِلَى الْحِيرَةِ، ذَهَبَ الْخَوْفُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ وَهُمْ عَازِمُونَ عَلَى الْخُرُوجِ لِقِتَالِ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي الصَّبَاحِ ، وَنَامُوا يَحْلُمُونَ بِالنَّصْرِ ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ أَنَّ سُــيُوفَ الْمُسْلِمِينَ فِي انْتِظَارِهِمْ.

وَمَــعَ أَوَّلِ ضَوْءٍ مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ.. فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْحِصْنِ وَخَرَجَ الْفُرْسُ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ خَالِدًا قَدْ رَحَلَ، صَفُّوا صُفُوفَهُمْ أَمَامَ صُفُوفِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَبْلَ

أَنْ يَبْدَأُوا الْهُجُومَ فُوجِئُوا بِالأَعْدَادِ الضَّخْمَةِ لِلْمُجَاهِدِينَ وَعَلَى رَأْسِهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الَّذِي عَادَ فِي اللَّيْلِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

هَرَبَتِ الشَّجَاعَةُ مِنْ قُلُوبِ جَيْشِ الْفُرْسِ، وَحَلَّ مَحَلَّهَا الْجُبْنُ وَالْخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ، وَوَقَفُوا يُفَكِّرُونَ كَيْفَ يَهْرُبُونَ.

قَرَأَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا يَدُورُ فِي أَذْهَانِهِمْ، وَرَاقَبَ عُيُونَهُمُ الَّتِي زَاغَتْ فِي مَحَاجِرِهَا مِنَ الْخَوْفِ، وَتَرَدُّدَهُمْ فِي التَّحَرُّكِ إِلَى الأَمَامِ وَاهْتِزَازَ أَسْلِحَتِهِمْ فِي أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتْ فُرْصَةَ الْقَائِدِ لِيَجْنِيَ نَصْرًا دُونَ مَشَقَّةٍ، فَصَاحَ فِي الْمُجَاهِدِينَ يَأْمُرُهُمْ بِالْهُجُومِ وَهُوَ يَقُولُ:

- اهْجُمُوا عَلَيْهِمْ؛ فَإِنِّي أَرَى قَوْمًا قَدْ أَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَهَجَمَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى جَيْشِ الْفُرْسِ، لَمْ يَجِدِ الْمُجَاهِدُونَ مُقَاوَمَةً مِنَ الْفُرْسِ؛ فَقَدْ هَزَمَهُمُ الْخَوْفُ وَجَعَلَهُمْ يَسْتَسْلِمُونَ لِلْمَوْتِ وَهُمُ الْعَاشِقُونَ لِلْحَيَاةِ. وَلَمْ يَمْضِ نِصْفُ النَّهَارِ حَتَّى تَحَقَّقَ النَّصْرُ، وَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ فَارِسِيٌّ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، وَفَتَحَ اللهُ الْأُبُلَّةَ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ.

أَمَرَ الْقَائِدُ بِأَنْ يَجْمَعَ الْمُجَاهِدُونَ الْغَنَائِمَ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، أَخَذَ خُمُسَهُ وَأَرْسَلَهُ لِلْخَلِيفَةِ أَبِي بَكْرٍ فِي الْمَدِينَةِ، وَوَزَّعَ الْبَاقِيَ عَلَى الْمُقَاتِلِينَ، فَكَانَ نَصِيبُ كُلٍّ مِنْهُمْ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

كَانَ عَــلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ يَبْدَأَ التَّحَرُّكَ فِي اتِّجَاهِ الْحِيرَةِ، لَكِنْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ يَضْمَنَ بَقَاءَ الْأُبُلَّةِ تَحْتَ رَايَةِ الإِسْــلَامِ، فَأَمَرَ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ أَنْ يَقُودَ جَيْشَهُ لإِخْضَاعِ بَاقِي الْمِنْطَقَةِ.

تَحَرَّكَ الْمُثَنَّى بِجَيْشِــهِ نَحْوَ الشَّــمَالِ، وَظَلَّ خَالِدٌ مَعَ بَقِيَّــةِ الْجَيْشِ فِي الْأُبُلَّةِ، وَكَمَــا فَعَلَ فِي كَاظِمَةَ فَعَلَ هُنَا، مَنْ دَخَلَ الإِسْــلَامَ مِنْ أَهْلِ الْأُبُلَّةِ حَدَّدَ لَهُ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ، وَمَنْ ظَلَّ عَلَى دِينِهِ فَرَضَ عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ.

وَلأَنَّ الْأُبُلَّةَ مِينَاءٌ تَأْتِيهِ السُّفُنُ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَالسِّنْدِ، صَارَ لَهَا أَهَمِّيَّةٌ كَبِيرَةٌ عِنْدَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ.. فَكَوَّنَ ثَلَاثَ فِرَقٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ لِحِمَايَتِهَا: وَاحِدَةٌ بِقِيَادَةِ قُطْبَةَ بْنِ قَتَادَةَ، وَالثَّانِيَةُ بِقِيَادَةِ سُــوَيْدِ بْنِ قُطْبَةَ، أَمَّا الثَّالِثَةُ فَجَعَلَ شُــرَيْحَ بْنَ عَامِرٍ قَائِدًا لَهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ قَائِدًا عَامًّا هُوَ سُــوَيْدُ بْنُ مُقَرِّنٍ وَجَعَلَ مَقَرَّهُ الْحَفِيرَ، وَوَكَّلَهُ نِيَابَةً عَنْهُ فِي جَمْعِ الْجِزْيَةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْــلِمِينَ وَالزَّكَاةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِرْسَالِهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ فِي الْمَدِينَةِ، ثُمَّ اتَّجَهَ بِبَاقِي الْجَيْشِ نَحْوَ الشَّــمَالِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْحِيرَةِ.

مَعْرَكَةُ الْمَذَارِ

بَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللهُ مِينَاءَ الْأُبُلَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَمَرَ الْقَائِدُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ أَنْ يَسْبِقَهُ إِلَى الْحِيرَةِ، عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ يَلْقَاهُ مِنَ الْفُرْسِ فِي طَرِيقِهِ.

تَحَرَّكَ الْمُثَنَّى بِجَيْشِهِ عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ لِنَهْرِ الْفُرَاتِ، مَرَّ عَلَى حِصْنٍ لامْرَأَةٍ اسْمُهَا كَامُورَزَادُ، وَقَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي مُحَاوَلَةِ اقْتِحَامِهِ، عَرَفَ أَنَّ زَوْجَهَا فِي حِصْنٍ آخَرَ قَرِيبٍ، تَرَكَ أَخَاهُ الْمُعَنَّى بْنَ حَارِثَةَ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ لِحِصَارِ حِصْنِ الْمَرْأَةِ، وَوَاصَلَ طَرِيقَهُ لِفَتْحِ حِصْنِ الرَّجُلِ.

حِينَ رَأَتْ كَامُورَزَادُ حِصَارَ الْمُسْلِمِينَ لِحِصْنِهَا، وَخَوْفَ جُنُودِهَا مِنْ قِتَالِهِمْ، رَاحَتْ تَبُثُّ فِيهِمْ رُوحَ الْقِتَالِ وَتَحُثُّهُمْ عَلَيْهِ، وَبَيْنَمَا هِيَ كَذَلِكَ جَاءَتْهَا أَخْبَارُ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى فُرْسَانِ حِصْنِ زَوْجِهَا وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَيْهِ، فَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْمُقَاوَمَةِ، وَأُعْجِبَتْ بِهَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا يُقْهَرُونَ، وَعَرَفَتْ أَنَّهُمْ يَنْتَصِرُونَ دَائِمًا؛ لِأَنَّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ دِينِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ، فَأَيْقَنَتْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

فَتَحَتْ كَامُورَزَادُ أَبْوَابَ حِصْنِهَا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَهِيَ تُعْلِنُ لَهُمْ إِسْلَامَهَا، فَعَلَّمَهَا الْمُعَنَّى أُصُولَ دِينِهَا وَأَخْبَرَهَا بِمَا عَلَيْهَا مِنْ زَكَاةٍ فِي مَالِهَا، وَوَاصَلَ طَرِيقَهُ حَتَّى أَدْرَكَ أَخَاهُ الْمُثَنَّى. وَرَاحَا مَعًا يُطَارِدُونَ فُلُولَ الْفُرْسِ الْهَارِبِينَ أَمَامَهُمْ كَالْأَرَانِبِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي تَفِرُّ مَذْعُورَةً مِنْ صَيَّادِيهَا.

ظَلَّ الْمُثَنَّى يُطَارِدُ فُرْسَانَ الْفُرْسِ الْهَارِبَةَ أَمَامَهُمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مِنْطَقَةٍ تُسَمَّى الْمَذَارَ، رَآهُمْ وَهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى جَيْشٍ فَارِسِيٍّ جَرَّارٍ ، بَيْنَمَا سُفُنُهُمْ تَقِفُ فِي نَهْرِ الْفُرَاتِ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ.

أَيْقَنَ الْمُثَنَّى أَنَّ الْفُرْسَ جَاءُوا لِلانْتِقَامِ لِهَزِيمَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَيْضًا يَخَافُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِذَلِكَ وَضَعُوا سُفُنَهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ اسْتِعْدَادًا لِلْهَرَبِ إِذَا اسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ هَزِيمَتَهُمْ، فَأَسْرَعَ عَائِدًا إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِيُخْبِرَهُ بِمَا رَأَى .

كَانَ الْجَيْشُ الَّذِي رَآهُ الْمُثَنَّى، هُوَ الْجَيْشَ الَّذِي طَلَبَهُ هُرْمُزُ مِنْ كِسْرَى فَارِسَ. لَكِنَّهُ تَعَجَّلَ وَقَاتَلَ الْمُسْلِمِينَ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ يَسِيرٌ، وَدَفَعَ حَيَاتَهُ ثَمَنًا لِغَبَائِهِ وَمَكْرِهِ وَخِدَاعِهِ وَتَسَرُّعِهِ، وَذَاقَ جَيْشُهُ مَرَارَةَ الْهَزِيمَةِ.

حِينَ سَمِعَ كِسْرَى فَارِسَ بِهَزِيمَةِ جَيْشِ هُرْمُزَ، أَرْسَلَ جَيْشًا آخَرَ، لِيَنْضَمَّ إِلَى الْجَيْشِ الأَوَّلِ، وَصَارَ عَدَدُ الْفُرْسَانِ الَّذِينَ جَاءُوا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ ثَمَانِينَ أَلْفَ فَارِسٍ، يَقُودُهُمْ أَعْظَمُ فُرْسَانِهِمْ وَهُوَ قَارِنُ بْنُ يَرْقَانْسَ، يَأْمُلُونَ أَنْ يُبِيدُوا جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ وَيُوقِفُوا تَقَدُّمَهُمْ نَحْوَ الشَّمَالِ.

وَحِينَ أَخْبَرَ الْمُثَنَّى خَالِدًا بِأَمْرِ جَيْشِ الْفُرْسِ، أَرْسَلَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ يُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ ذَاهِبٌ لِقِتَالِ الْفُرْسِ فِي الْمَذَارِ، وَأَسْرَعَ يَقُودُ الْجَيْشَ كَالْبَرْقِ يَقْطَعُ السُّهُولَ وَالْوُدْيَانَ وَالْجِبَالَ فِي طَرِيقِهِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ .

قَبْلَ أَنْ يَصِلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى الْمَذَارِ، وَقَعَ خِلَافٌ فِي جَيْشِ الْفُرْسِ: أَيْنَ وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ؟ مَنْ قَاتَلَ مَعَ هُرْمُزَ وَهُزِمَ.. يَرَى أَنْ يَتَحَصَّنُوا

دَاخِلَ الْمَدِينَةِ فِي انْتِظَارِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَجَيْشِهِ وَيُقَاتِلُوهُ فِي الشَّوَارِعِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَرَ بَأْسَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ وَحِرْصَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ رَأَوْا أَنْ يَخْرُجُوا لِلصِّدَامِ مَعَ خَالِدٍ وَجَيْشِهِ بَعِيدًا عَنِ الْعُمْرَانِ.

وَانْتَصَرَ الرَّأْيُ الثَّانِي، وَوَقَفَ ثَمَانُونَ أَلْفًا مِنْ أَعْظَمِ فُرْسَانِ الْفُرْسِ فِي انْتِظَارِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، لَا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ إِلَيْهِمْ وَمَلَكُ الْمَوْتِ يَسْبِقُهُمْ بِأَعْوَانِهِ فِي انْتِظَارِ حَصْدِ أَرْوَاحِهِمْ؛ لِيُرْسِلَ بِهَا إِلَى الْجَحِيمِ.

اصْطَفَّ كُلٌّ مِنَ الْجَيْشَيْنِ فِي مُوَاجَهَةِ الآخَرِ. خَرَجَ قَارِنٌ قَائِدُ الْفُرْسِ وَوَقَفَ أَمَامَ الصُّفُوفِ، صَاحَ يَطْلُبُ مَنْ يُبَارِزُهُ، خَرَجَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، لَكِنَّ مَعْقِلَ بْنَ الأَعْشَى كَانَ أَسْرَعَ مِنْهُ وَسَبَقَهُ إِلَيْهِ، تَرَكَهُ خَالِدٌ لابْنِ الأَعْشَى، وَاشْتَبَكَ الرَّجُلَانِ. قَارِنٌ الْفَارِسِيُّ الَّذِي يَعْشَقُ الْحَيَاةَ وَزِينَتَهَا، وَمَعْقِلٌ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَتُوقُ لِلشَّهَادَةِ.

بَدَأَتِ الْمُبَارَزَةُ.. تَنَاوَشَا قَلِيلًا، كُلٌّ مِنْهُمَا يَبْحَثُ عَنْ نُقْطَةِ ضَعْفِ الآخَرِ، وَلَمْ يُمْهِلْ مَعْقِلُ بْنُ الأَعْشَى قَارِنًا الْوَقْتَ لِيَعْرِفَ نُقْطَةَ ضَعْفِهِ، فَقَدِ انْقَضَّ عَلَيْهِ كَالصَّاعِقَةِ وَأَرْسَلَ رُوحَهُ الْبَائِسَةَ إِلَى النَّارِ، وَوَهَبَهُ اللهُ الْحَيَاةَ عَلَى عَكْسِ مَا كَانَ يُرِيدُ.

عَادَ مَعْقِلٌ إِلَى صُفُوفِ الْجَيْشِ وَصَيْحَاتُ الْمُجَاهِدِينَ تَرْتَفِعُ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ تَسْتَقْبِلُهُ حَتَّى عَادَ إِلَى مَكَانِهِ بَيْنَ الصُّفُوفِ. وَمِنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْفُرْسِ خَرَجَ قَائِدَا الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ وَطَلَبَا الْمُبَارَزَةَ؛ لِيَنْتَقِمَا لِقَتْلِ قَائِدِهِمَا، فَصَمَتَتْ حَنَاجِرُ الْمُجَاهِدِينَ عَنِ التَّهْلِيلِ.

مِـنْ بَيْنِ صُفُوفِ الْمُجَاهِدِينَ خَرَجَ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ وَعَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ حَرِيصَيْنِ عَلَى الشَّـهَادَةِ، فَكَانَتِ الشَّجَاعَةُ وَالإِقْدَامُ فِي جَانِبِهِمَا، وَكَانَ الْحِرْصُ عَلَى الْحَيَاةِ فِي جَانِبِ قَائِدَيِ الْفُرْسِ، فَرَاحَا يَهْرُبَانِ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنْ رِقَابِهِمَا، وَلَمْ يَطُلِ الْوَقْتُ حَتَّى كَانَ الْفَارِسِيَّانِ فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى جَهَنَّمَ.

ارْتَفَعَتْ صَيْحَاتُ الْمُسْـلِمِينَ.. اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ..بَثَّتِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ جَيْشِ عَدُوِّهِمْ الَّذِي فَقَدَ قَادَتَهُ، وَصَارَ كَالْقَطِيعِ كُلٌّ مِنْهُمْ يَفْعَلُ مَا يَرَاهُ هُوَ؛ فَلَا قَائِدَ يُوَجِّهُهُ. وَارْتَبَكَتْ صُفُوفُهُمْ، وَصَارُوا لَا يَدْرُونَ مَا إِذَا كَانَتْ سُيُوفُهُمْ تَتَّجِهُ نَاحِيَةَ الْمُسْلِمِينَ أَمْ تَتَّجِهُ نَحْوَ أَصْحَابِهِمْ، وَانْتَهَزَ الْمُجَاهِدُونَ الْفُرْصَةَ وَانْدَفَعُوا كَالأُسُـودِ يَخْتَرِقُونَ صُفُوفَهُمْ وَرَاحَتِ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ تَحْصُدُ أَرْوَاحَهُمْ وَتُرْسِلُ بِهَا إِلَى الْجَحِيمِ، فَفَرَّ مِنْهُمْ مَنِ اسْتَطَاعَ الْفِرَارَ، وَمَنِ اسْـتَطَاعَ الْوُصُولَ إِلَى السُّفُنِ الرَّاسِيَةِ خَلْفَهُمْ فِي نَهْرِ دِجْلَةَ أَبْحَرُوا بِهَا بَعِيدًا عَنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، وَمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِالسُّـفُنِ أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ فَمَاتَ غَرَقًا، وَانْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ وَقَدْ تَرَكَ الْفُرْسُ وَرَاءَهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا مَا بَيْنَ قَتِيلٍ حَصَدَتْ سُيُوفُ وَرِمَاحُ الْمُسْلِمِينَ أَرْوَاحَهُمْ وَبَيْنَ غَرِيقٍ ابْتَلَعَتْهُمْ مِيَاهُ نَهْرِ دِجْلَةَ .

وَتَحَقَّـقَ النَّصْرُ لِلْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْفُرْسِ فِي مَعْرَكَـةٍ جَدِيدَةٍ، وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَذَارَ، وَجَمَعُوا الْغَنَائِمَ وَأَرْسَـلُوا خُمُسَـهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيـقِ فِي الْمَدِينَةِ، وَوَزَّعُوا الْبَاقِيَ عَلَى الْمُقَاتِلِينَ، حَيْـثُ كَانَ نَصِيبُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَلْفَ دِرْهَمٍ كَمَا كَانَ فِي مَعْرَكَةِ كَاظِمَةَ. وَبَدَأُوا يَسْـتَعِدُّونَ لِمُوَاصَلَةِ الطَّرِيـقِ نَحْوَ الْحِيرَةِ لِلِقَاءِ جَيْشِ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ؛ تَنْفِيذًا لأَوَامِرِ الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه.

مَعْرَكَةُ الْوَلَجَةِ

قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنَ الْمَذَارِ إِلَى الْحِيرَةِ، أَخْبَرَتْهُ عُيُونُهُ أَنَّ كِسْرَى فَارِسَ قَدْ أَرْسَلَ لَهُ أَمْهَرَ فُرْسَانِهِ فِي جَيْشَيْنِ كَبِيرَيْنِ، أَحَدُهُمَا بِقِيَادَةِ بَهْمَنَ جَاذَوَيْهِ، وَالآخَرُ بِقِيَادَةِ الأَنْدَرِ زُغَرَ، وَهُمَا مِنْ كِبَارِ قَادَتِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ طَلَبَ مِنَ الأَوَّلِ أَنْ يَخْرُجَ بِجَيْشِهِ مِنَ الْمَدَائِنِ إِلَى كَسْكَرَ وَمِنْهَا إِلَى الْوَلَجَةِ، وَأَنْ يَقْطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْحِيرَةِ، ثُمَّ يَلْحَقَ بِهِ الثَّانِي وَيَنْتَقِمَا مَعًا مِنَ الْهَزَائِمِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِمْ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ.

خَالَفَ بَهْمَنُ خُطَّةَ كِسْرَى وَسَلَكَ طَرِيقًا مُخَالِفًا ، عَلَى أَمَلِ أَنْ يُوقِعَ الْمُسْلِمِينَ فِي كَمَّاشَةٍ بَيْنَ جَيْشِهِ وَجَيْشِ الأَنْدَرِ زُغَرَ.

عَرَفَ جَوَاسِيسُ خَالِدٍ بِخُطَّةِ بَهْمَنَ، فَأَسْرَعُوا إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يُخْبِرُونَهُ بِخُطَّةِ بَهْمَنَ، وَبِمَا فَعَلَ الأَنْدَرُ زُغَرَ مَعَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَدِينُ بِالْوَلَاءِ لِلْفُرْسِ، فَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُجَنِّدَ فِي طَرِيقِهِ الْكَثِيرَ مِنَ الأَعْرَابِ مِنْ قَبِيلَتَيْ تَغْلِبَ وَبَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، وَضَمَّهُمْ إِلَى جَيْشِهِ بَعْدَ أَنْ أَقْنَعَهُمْ بِأَنَّ وَلَاءَهُمْ لِلْفُرْسِ أَفْضَلُ لَهُمْ مِنْ وَلَائِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ.

قَرَّرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي سَيْرِهِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْحِيرَةِ، فَلَا شَيْءَ أَبَدًا يَمْنَعُ مُجَاهِدًا مِنْ مُوَاصَلَةِ جِهَادِهِ، وَلَا شُعُورَ بِالْخَوْفِ يَمْنَعُ مُقَاتِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ

مِنْ أَنْ يَطْلُبَ الشَّـــهَادَةَ. وَوَاصَلَ قِيَادَةَ الْجَيْشِ الصَّغِيرِ بِعَـــدَدِهِ الَّذِي لَمْ يَزِدْ عَلَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ مُجَاهِدٍ فَقَطْ، الْكَبِيرِ بِقُوَّةِ إِيمَانِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى الْمَوْتِ، فَيَهَبُ اللهُ لَهُمُ الْحَيَاةَ؛ لِيُوَاصِلُوا الْجِهَادَ وَتَنْتَشِرَ كَلِمَةُ الْحَقِّ فِي الْبِلَادِ.

وَاصَلَ الْقَائِدُ طَرِيقَهُ إِلَى مَعْرَكَةٍ يَطْلُبُونَ فِيهَا النَّصْرَ أَوِ الشَّهَادَةَ، غَيَّرَ طُرُقَ سَيْرِهِ، سَـــارَ فِي دُرُوبٍ وَسِكَكٍ لَمْ يَسِـــرْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ؛ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي فَخِّ الْكَمَّاشَةِ الَّذِي نَصَبَهُ كِسْرَى فَارِسَ وَقُوَّادُهُ.

هَـــرَبَ الْمُجَاهِدُونَ مِنَ الْفَـــخِّ، وَوَاصَلُوا طَرِيقَهُمْ حَتَّـــى اقْتَرَبُوا مِنَ الْوَلَجَةِ، عَـــادَتْ عُيُونُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِتُخْبِرَهُ بِأَنَّ جَيْشَ الأَنْدَرِ زُغَرَ قَدْ عَسْـــكَرَ فِي مَكَانٍ اسْمُهُ الثَّنِيَّةُ وَأَنَّهُمْ سَيَتَّجِهُونَ نَحْوَ الْوَلَجَةِ.

وَكَانَـــتْ فُرْصَةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ يَلْتَقِيَ بِجَيْشِ الأَنْدَرِ زُغَرَ مُنْفَرِدًا، فَأَسْـــرَعَ بِالْجَيْشِ حَتَّـــى يَصِلَ إِلَى الْوَلَجَةِ قَبْلَ عَدُوِّهِ، وَهُنَاكَ حَـــدَّدَ مَيْدَانَ الْمَعْرَكَةِ أَرْضًا مُسْـــتَوِيَةً تَصْلُحُ لِلْقِتَالِ، لَيْسَ فِيهَا أَشْجَارٌ وَلَا مُسْـــتَنْقَعَاتٌ، وَبِالتَّالِي فَهِيَ تَسْمَحُ بِحُرِّيَّةِ الْحَرَكَةِ وَالْمُنَاوَرَةِ، وَعَسْـــكَرَ بِالْمُجَاهِدِينَ فِيهَا وَنَظَّمَ صُفُوفَهُمْ اسْتِعْدَادًا لِلْقِتَالِ.

ثُمَّ عَقَدَ سَـــيْفُ اللهِ اجْتِمَاعًا لِقَادَةِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا يَفْعَلُونَ، وَيَضَعُونَ خُطَّةَ حَرْبٍ تَضْمَنُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ أَنْسَـــبَ طَرِيقَةٍ لِقِتَالِ هَذِهِ الْحُشُـــودِ الْكَبِيرَةِ مِنْ جَيْشِ الْفُـــرْسِ أَنْ يُهَاجِمُوهَا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ؛ حَتَّى

يَتَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ وَتَكُونَ مُفَاجَأَةً مُرْبِكَةً لَهُمْ تَضْمَنُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ .

كَوَّنَ الْقَائِدُ فِرْقَتَيْنِ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، وَاحِدَةٌ بِقِيَادَةِ بُسْرِ بْنِ أَبِي رُهْمٍ، وَالثَّانِيَةُ بِقِيَادَةِ سَعِيدِ بْنِ مُرَّةَ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَكْمُنَا خَلْفَ الْجَيْشِ، مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ وَمِنْ جِهَةِ الْيَسَارِ، وَلَا يَتَدَخَّلَا فِي الْحَرْبِ إِلَّا حِينَ يَبْدُو الإِرْهَاقُ عَلَى جُنُودِ الْفُرْسِ .

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى اصْطَفَّ الْجَيْشَانِ، لَمْ يَخْرُجْ وَاحِدٌ مِنْ قَادَةِ الْفُرْسِ يُطَالِبُ خَالِدًا بِالنِّزَالِ كَمَا حَدَثَ فِي الْمَعَارِكِ السَّابِقَةِ؛ خَوْفًا مِن بَرَاعَتِهِ وَسَيْفِهِ الْبَتَّارِ.

أَشَارَ الْقَادَةُ بِبَدْءِ الْقِتَالِ، وَارْتَفَعَتْ صَيْحَاتُ الْفُرْسِ وَهُمْ يَنْدَفِعُونَ نَحْوَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَزَغْرَدَ الْهَوَاءُ بِتَهْلِيلَاتِ وَتَكْبِيرَاتِ الْمُجَاهِدِينَ، وَارْتَفَعَتْ أَسِنَّةُ الرِّمَاحِ تَهْتَزُّ فِي الْهَوَاءِ وَتَمِيلُ إِلَى مُسْتَوَى الصُّدُورِ، وَتَنْدَفِعُ نَاحِيَةَ صُدُورِ الْفُرْسِ تَنْوِي اخْتِرَاقَهَا.

وَالْتَحَمَ الْجَيْشَانِ، وَتَدَاخَلَتِ الصُّفُوفُ، وَاشْتَبَكَ الْمُقَاتِلُونَ فِي قِتَالٍ عَنِيفٍ، هَذِهِ الْمَرَّةَ ثَبَتَ الْفُرْسُ كَثِيرًا أَمَامَ هَجَمَاتِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَمْ يَدِبَّ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يَهْرُبُوا مِنْ أَمَامِهِمْ كَمَا حَدَثَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، رُبَّمَا لأَنَّ قَادَتَهُمْ لَمْ يُقْتَلُوا وَظَلُّوا بَيْنَهُمْ يُوَجِّهُونَهُمْ، وَرُبَّمَا لأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ عَدَدَ الْمُجَاهِدِينَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ، وَقَاتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا.

وَضَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ خُطَّتَهُ عَلَى أَنْ يُنْهِكَ جُنُودَ الْفُرْسِ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِدُخُولِ

الْفِرْقَتَيْنِ الْكَامِنَتَيْنِ خَلْفَهُ؛ حَتَّى يَضْمَنَ حَسْمَ الْمَعْرَكَةِ لِصَالِحِ دِينِ اللهِ، لَكِنَّ الْفُرْسَ صَامِدُونَ حَتَّى الآنَ، يُبَادِلُونَهُمْ هَجْمَةً بِهَجْمَةٍ، وَأَحْيَانًا يَتَفَوَّقُونَ عَلَيْهِمْ لَوْلَا صَلَابَةُ الْمُجَاهِدِينَ.

صَاحَ يَحُثُّ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْقِتَالِ، وَرَاحَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُنَفِّذَ وَعْدَهُ بِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْتَجِيبُ اللهُ لِدُعَائِهِ، وَيُثَبِّتُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ وَيُمَنِّيهِمْ بِالنَّصْرِ. وَيَدِبُّ الْحَمَاسُ فِي قُلُوبِ الْمُجَاهِدِينَ، وَيَحْمِلُونَ بِكُلِّ قُوَّتِهِمْ عَلَى الْفُرْسِ الَّذِينَ أَخَذُوا فِي التَّرَاجُعِ وَبَدَتْ عَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ الانْهِزَامِ.

تَأَكَّدَ الْقَائِدُ أَنَّ الْفُرْسَ قَدْ أُنْهِكُوا تَمَامًا وَتَرَاخَتْ سَوَاعِدُهُمْ وَضَعُفَتْ ضَرَبَاتُهُمْ، فَأَمَرَ الْفِرْقَتَيْنِ الْكَامِنَتَيْنِ بِالْهُجُومِ. وَفِي لَحَظَاتٍ، وَفِي مُفَاجَأَةٍ مُذْهِلَةٍ شَلَّتْ تَفْكِيرَ الْفُرْسِ، انْدَفَعَ الْمُجَاهِدُونَ يَنْقَضُّونَ عَلَى مُؤَخِّرَتِهِمْ وَيُحِيطُونَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. وَقَبْلَ حُلُولِ اللَّيْلِ، كَانَ مُعْظَمُ جَيْشِ الْفُرْسِ قَدْ قُتِلَ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، وَفَرَّ الأَنْدَرُ زُغَرَ هَرَبًا فِي الصَّحْرَاءِ.

كَانَ مِنْ ضِمْنِ مَنْ قُتِلَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي لَمْ تَدُمْ سِوَى يومٍ وَاحِدٍ اثْنَانِ مِنْ أَبْنَاءِ نَصَارَى الْعَرَبِ، وَهُمَا: ابْنُ عَبْدِ الأَسْوَدِ الْعِجْلِيُّ، وَابْنُ جَابِرِ بْنِ جُبَيْرٍ مِنْ قَبِيلَةِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ. وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ، وَبِهَذَا النَّصْرِ السَّرِيعِ وَالْحَاسِمِ فَتَحَ اللهُ الْوَلَجَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَخَطَا الْمُجَاهِدُونَ خُطْوَةً وَاسِعَةً فِي الطَّرِيقِ نَحْوَ الْحِيرَةِ.

وَفِي الصَّبَاحِ أَمَرَ الْقَائِدُ أَنْ تُجْمَعَ الْغَنَائِمُ وَأَنْ تُقَسَّمَ إِلَى أَخْمَاسٍ، أَرْسَلَ الْخُمُسَ إِلَى الصِّدِّيقِ رضي الله عنه فِي الْمَدِينَةِ، وَقَسَّمَ الأَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ الْبَاقِيَةَ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ بِالتَّسَاوِي. وَوَقَفَ بَيْنَهُمْ يَشْحَذُ هِمَمَهُمْ وَيُقَوِّي عَزَائِمَهُمْ وَيُفَجِّرُ طَاقَاتِهِمْ، فَصَاحَتْ نُفُوسُهُمُ الْمُؤْمِنَةُ تُطَالِبُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى بِكُلِّ طَاقَاتِهَا وَإِمْكَانِيَّاتِهَا وَقُدُرَاتِهَا. وَكَانَ هَذَا مَا يُرِيدُهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَرَّرَ أَنْ يُوَاصِلَ الْحَرَكَةَ نَحْوَ الْحِيرَةِ .

مَعْرَكَةُ أُلَيْسَ

ثَارَتْ ثَائِرَةُ نَصَارَى قَبِيلَةِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ لِمَقْتَلِ ابْنَيْ عَبْدِ الأَسْوَدِ الْعِجْلِيِّ وَجَابِرِ ابْنِ جُبَيْرٍ فِي مَعْرَكَةِ الْوَلَجَةِ، فَقَرَّرُوا الانْتِقَامَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَقْتَلِهِمَا، وَجَمَعُوا مِنْ بَيْنِهِمْ كُلَّ مَنْ يَسْتَطِيعُ حَمْلَ السِّلَاحِ وَكَوَّنُوا جَيْشًا لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ .

تَجَمَّعَ جَيْشُ الْعَرَبِ النَّصَارَى فِي أُلَيْسَ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ أَرْبَعُونَ أَلْفًا هُمْ كُلُّ أَهْلِ أَمْغِيشِيَا، وَأَرْسَلُوا إِلَى كِسْرَى فَارِسَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُسَاعِدَهُمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

فَرِحَ كِسْرَى بِرِسَالَةِ نَصَارَى الْعَرَبِ، وَبَعَثَ بِرِسَالَةٍ إِلَى قَائِدِهِ بَهْمَنَ جَاذَوَيْهِ الَّذِي سَبَقَ وَخَالَفَ خُطَّةَ الْحَرْبِ وَسَارَ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الَّذِي حُدِّدَ لَهُ؛ يُرِيدُ أَنْ يَدُورَ حَوْلَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَيَحْصُرَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَيْشِ الأَنْدَرِ زُغَرَ، وَعَرَفَ خَالِدُ ابْنُ الْوَلِيدِ بِأَمْرِهِ وَضَلَّلَهُ، وَسَارَ فِي طُرُقَاتٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَيْشِ الأَنْدَرِ زُغَرَ وَقَاتَلَهُ وَحْدَهُ وَأَبَادَهُ.

قَرَأَ بَهْمَنُ الرِّسَالَةَ، وَإِذَا بِكِسْرَى يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَنْضَمَّ إِلَى نَصَارَى الْعَرَبِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْفُرْسَانِ فِي أُلَيْسَ لِقِتَالِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْعِ مَسِيرَتِهِ إِلَى الْحِيرَةِ.

فَرِحَ بَهْمَنُ بِتَكْلِيفِ كِسْرَى لَهُ، ظَنَّ أَنَّهُ سَيُكَفِّرُ عَنْ خَطَئِهِ السَّابِقِ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي إِبَادَةِ جَيْشِ الأَنْدَرِ زُغَرَ فِي الْوَلَجَةِ، وَأَسْرَعَ يَقُودُ جَيْشَهُ إِلَى أُلَيْسَ.

لَمْ تَدُمْ فَرْحَةُ بَهْمَنَ طَوِيلًا؛ فَقَدْ أَرْسَلَ كِسْرَى إِلَيْهِ ثَانِيَةً يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُسْرِعَ إِلَى الْعَاصِمَةِ، وَيُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ قَدْ عَيَّنَ جَابَانَ قَائِدًا لِلْجَيْشِ بَدَلًا مِنْهُ .

أَطَاعَ بَهْمَنُ الأَمْرَ وَتَرَكَ الْجَيْشَ، وَعَادَ إِلَى الْمَدَائِنِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ جَابَانُ يَقُودُ مَدَدًا مِنَ الْفُرْسَانِ الأَشِدَّاءِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى أُلَيْسَ. وَحِينَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ صَارَ عَدَدُ هَذَا التَّحَالُفِ مِئَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا .

وَصَلَتْ أَخْبَارُ تَجَمُّعِ الْفُرْسِ وَنَصَارَى الْعَرَبِ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْوَلَجَةِ، لَمْ يَخَفْ مِنْ أَعْدَادِهِمُ الْكَبِيرَةِ، تَذَكَّرَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾، وَتَذَكَّرَ حَجْمَ جُيُوشِ الْفُرْسِ الَّتِي حَارَبَهَا مِنْ قَبْلُ وَأَذَاقَهُمْ مَرَارَةَ الْهَزِيمَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، هَبَّ مُسْرِعًا يَقُودُ جَيْشَهُ نَحْوَ أُلَيْسَ، وَهُوَ مُوقِنٌ بِأَنَّ النَّصْرَ آتٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

رَتَّبَ جَابَانُ جُيُوشَهُ، اعْتَادَ أَنْ يَسِيرَ بَيْنَ صُفُوفِ قُوَّاتِهِ يَسْتَعْرِضُ أَعْدَادَهَا وَقُوَّتَهَا، وَيُحَفِّزُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَهُوَ مُوقِنٌ هُوَ الآخَرُ بِالنَّصْرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَمَاذَا يَفْعَلُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا أَمَامَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ أَشْجَعِ الْفُرْسَانِ؟!

كَانَ جَابَانُ قَائِدًا مُحَنَّكًا إِلَّا أَنَّ شَخْصِيَّتَهُ ضَعِيفَةٌ، وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي وَصَلَتْ فِيهِ قُوَّاتُ الْمُجَاهِدِينَ إِلَى أُلَيْسَ.. كَانَ الْوَقْتُ وَقْتَ غَدَاءٍ، وَصُفَّتْ مَوَائِدُ الطَّعَامِ أَمَامَ قُوَّاتِ التَّحَالُفِ الْفَارِسِيِّ النَّصْرَانِيِّ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأُوا بِالْطَّعَامِ، إِذَا بِتَكْبِيرَاتِ الْمُجَاهِدِينَ تُصِمُّ آذَانَهُمْ، فَصَاحَ جَابَانُ يَأْمُرُهُمْ بِتَرْكِ الطَّعَامِ وَالْقِيَامِ لِلْقِتَالِ،

وَسْــوَسَ لَهُمْ شَيْطَانُهُمْ بِأَلَّا يَهْتَمُّوا بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَأَلَّا يَحْفُلُوا بِهِمْ؛ فَعَدَدُهُمْ لَا يُسَاوِي فِرْقَةً مِنْهُمْ.

عَشَّــشَ غُرُورُ الْقُوَّةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ سُــوءَ أَعْمَالِهِمْ، مَنَعَهُمْ مِنَ الاسْــتِمَاعِ لِصَوْتِ الْعَقْلِ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يُغْلَبُونَ، وَلَمْ يَهْتَمُّوا بِأَمْرِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي يُهَدِّدُهُمْ، وَخَالَفُوا أَمْرَ قَائِدِهِمْ وَبَدَأُوا يَأْكُلُونَ.

لَــمْ يَتْرُكْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيــدِ يَهْنَأُونَ بِطَعَامِهِمْ، وَبَيْنَمَا هُمْ مَشْــغُولُونَ بِمَلْءِ بُطُونِهِمْ أَمَرَ خَالِــدٌ بِالزَّحْفِ عَلَيْهِمْ، وَفِي لَحَظَاتٍ كَانَ الْمُجَاهِدُونَ يَقْفِزُونَ فَوْقَ مَوَائِدِهِمْ كَالْأُسُودِ الْجَائِعَةِ.

وَقَعَتِ الْوَاقِعَــةُ، تَرَكُوا طَعَامَهُمْ مُكْرَهِيــنَ، وَرَاحُوا يَبْحَثُــونَ عَنْ خُيُولِهِمْ وَسِلَاحِهِمْ، وَسُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ وَرِمَاحُهُمْ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى رِقَابِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.. تُرْسِلُ أَجْسَادَهُمْ إِلَى التُّرَابِ، وَأَرْوَاحَهُمْ إِلَى سَعِيرِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أَفَاقَ جَابَانُ مِنَ الصَّدْمَةِ، وَاسْــتَطَاعَ أَنْ يُلَمْلِمَ قُوَّاتِهِ، وَبَــدَأُوا يَصْمُدُونَ أَمَامَ هَجَمَاتِ الْمُسْــلِمِينَ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، هُجُومٌ شَدِيدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ يُقَابِلُهُ صَدٌّ وَدِفَاعٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ الْحَالُ مِنَ الدِّفَاعِ إِلَى الْهُجُومِ وَمِنَ الْهُجُومِ إِلَى الدِّفَاعِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ جَانِبٌ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى الآخَرِ .

مَوْقِفٌ لَمْ يَعْهَدْهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي قِتَالِهِ مَعَ الْفُرْسِ، لَمْ يَحْدُثْ أَنْ قَاتَلُوا قِتَالًا شَــدِيدًا مِثْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، لَمْ يَحْدُثْ أَنْ يَصْمُدَ عُشَّاقُ الْحَيَاةِ أَمَامَ هَجَمَاتِ طَالِبِي

الشَّـــهَادَةِ مِثْلَ الْيَوْمِ، صَاحَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى النَّصْرِ عَـــلَى أَعْدَاءِ دِينِهِ، وَأَمَّنَ الْمُجَاهِدُونَ عَلَى دُعَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ.

اسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَاءِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، فَثَبَّتَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الإِيمَانِ بِالنَّصْرِ، وَقَوَّى عَزَائِمَهُمْ، وَسَدَّدَ خُطَاهُمْ، صَارَتْ سُيُوفُهُمْ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى رِقَابِ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرِينَ، أَخَذَتِ الْحَمِيَّةُ الْمُسْـــلِمِينَ مِنْ قَبِيلَةِ بَكْرِ ابْنِ وَائِلٍ وَقَاتَلُوا الْمُتَنَصِّرِينَ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ، نَسَـــوْا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ عُمُومَتِهِمْ، نَسَوْا أَنَّهُمْ رُفَقَاءُ دَرْبِهِمْ وَمَرْعَاهُمْ وَمَنْهَلِ مَائِهِمْ، نَسَـــوْا كُلَّ شَيْءٍ، وَتَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللهِ يُقَاتِلُونَ دِينَهُ الْحَنِيفَ الْقَوِيمَ.

فَرَاحَتْ سُـــيُوفُهُمْ تَحْصُدُ أَرْوَاحَهُمْ، مِثْلَمَا تَحْصُدُ السُّيُوفُ الأُخْرَى رُؤُوسَ الْفُـــرْسِ عَبَدَةِ النَّارِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ رَبًّـــا. وَيَمْضِي الْوَقْتُ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ وَهُمْ يَصُولُونَ وَيَجُولُونَ وَسَـــطَ صُفُوفِ أَعْدَائِهِمْ، مُتَرَابِطِينَ كَمَا لَوْ كَانُوا آلَافًا فِي صُفُوفٍ لِلصَّـــلَاةِ، يُزِيحُونَ كُلَّ مَـــنْ فِي طَرِيقِهِمْ وَيُلْقُونَ بِهِ تَحْـــتَ أَقْدَامِهِمْ وَيَتَقَدَّمُونَ.

لَمْ تَطُلْ وَاحِدًا مِنْهُمْ ضَرْبَةُ سَيْفٍ أَوْ رَمْيَةُ رُمْحٍ، فَاللهُ يَحْمِيهِمْ وَيَدَّخِرُهُمْ لِنُصْرَةِ دِينِهِ وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَى كُلِّ الأَرْضِ، شَمَالِهَا وَجَنُوبِهَا، شَرْقِهَا وَغَرْبِهَا.

وَلَمْ تَغِبْ شَمْسُ يَوْمِ الْمَعْرَكَةِ، حَتَّى قَتَلَ الْمُجَاهِدُونَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمَجُـــوسِ عَبَدَةِ النَّارِ وَالْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرِينَ الَّذِينَ دَانُوا بِالْوَلَاءِ لَهُمْ. وَتَحَقَّقَ نَصْرُ

ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ مُجَاهِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مِئَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ، غَيْرَ الَّذِين فَرُّوا مِنْ أَمَامِهِمْ وَتَشَتَّتُوا فِي وُدْيَانِ الصَّحْرَاءِ.

كَفَّ الْمُسْلِمُونَ عَنْ مُطَارَدَةِ الْفُلُولِ الْهَارِبَةِ وَعَادُوا يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ، ثُمَّ وَاصَلُوا طَرِيقَهُمْ نَحْوَ الْحِيرَةِ.. فَهِيَ الْهَدَفُ الأَكْبَرُ الَّذِي سَتَنْطَلِقُ مِنْهُ الْجُيُوشُ الإِسْلَامِيَّةُ إِلَى الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ؛ لِتُطْفِئَ نَارَهُمْ وَتَفْتَحَ الْبَابَ لِنُورِ شَمْسِ الإِيمَانِ لِيَدْخُلَ إِلَى قُلُوبِهِمْ؛ حَتَّى يَتَحَرَّرُوا مِنْ عُبُودِيَّةِ الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ الَّذِي فِيهِ يَعِيشُونَ.

عَادُوا لِجَمْعِ غَنَائِمِ الْحَرْبِ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، قَسَّمُوهَا إِلَى خَمْسَةِ أَجْزَاءٍ، أَرْسَلُوا خُمُسًا إِلَى الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ مَعَ الْبُشْرَى بِالنَّصْرِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْحِيرَةِ لِتَحْقِيقِ أَمْرِ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه.

وَوَاصَلُوا الطَّرِيقَ نَحْوَ الشَّمَالِ.

مَعْرَكَةُ الْمَقَرِّ

وَاصَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ طَرِيقَهُ بِجَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ إِلَى الْحِيرَةِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَمْغِيشِيَا، وَكَانَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةَ الْبُنْيَانِ مُرْتَفِعَةَ الْقُصُورِ، وَجَدَهَا خَالِيَةً مِنْ سُكَّانِهَا؛ فَقَدْ قُتِلَ أَرْبَعُونَ أَلْفًا مِنْ أَهْلِهَا، وَفَرَّ الْبَاقُونَ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حِينَ عَرَفُوا أَنَّهُمْ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِم، وَتَرَكُوا مَتَاعَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَصَارَ كُلُّ ذَلِكَ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

أَرْسَلَ خَالِدٌ الْخُمُسَ لِلْخَلِيفَةِ، فِي الْمَدِينَةِ وَوَزَّعَ الْبَاقِيَ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ، فَكَانَ نَصِيبُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَلْفًا وَخَمْسَمِئَةِ دِرْهَمٍ .

فَتَحَ اللهُ أَمْغِيشِيَا لِلْمُسْلِمِينَ بِدُونِ قِتَالٍ، تَرَكَهَا أَهْلُهَا خَوْفًا مِنْ جُنُودِ اللهِ الَّذِينَ لَمْ يُهْزَمُوا مُنْذُ دُخُولِهِمْ أَرْضَ الْعِرَاقِ، وَغَنِمَ الْمُجَاهِدُونَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً، وَصَارَ عَلَيْهِمْ مُوَاصَلَةُ الزَّحْفِ نَحْوَ الْحِيرَةِ.

أَمْطَرَتِ الدُّنْيَا وَتَحَوَّلَتِ الطُّرُقُ إِلَى بِرَكٍ وَمُسْتَنْقَعَاتٍ تَعُوقُ حَرَكَةَ السَّيْرِ فِيهَا، فَأَمَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنْ يَجْمَعُوا عَدَدًا مِنَ السُّفُنِ وَوَضَعَهَا فِي خَلِيجِ أَمْغِيشِيَا، وَحِينَ جَمَعُوا لَهُ مَا أَرَادَ.. أَمَرَ الْمُشَاةَ أَنْ يَرْكَبُوا فِيهَا، وَرَكِبَ هُوَ مَعَ الْفُرْسَانِ، وَسَارُوا يَخُوضُونَ فِي طِينِ الأَرْضِ يَقُودُونَ الدَّوَابَّ وَالْجِمَالَ الَّتِي تَحْمِلُ طَعَامَهُمْ وَخِيَامَهُمْ وَسِلَاحَهُمْ، وَسَارَتِ السُّفُنُ تَتَهَادَى عَلَى صَفْحَةِ النَّهْرِ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْحِيرَةِ.

أَخْبَرَتْ جَوَاسِيسُ نَائِبِ مَلِكِ الْفُرْسِ عَلَى الْحِيرَةِ بِتَدْبِيرِ سَيْفِ اللهِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، أَرْسَلَ ابْنَهُ يَقُودُ جَيْشًا كَبِيرًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَسُدَّ الْمَاءَ عَنِ النَّهْرِ

مِنْ مَنْبَعِهِ حَتَّى يُعَطِّلَ سَيْرَ سُفُنِ الْمُسْلِمِينَ.

سَـــارَ الابْنُ بِجَيْشِـــهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ اسْـــمُهُ بَادِقِلِي بِالْقُرْبِ مِنْ أَوَّلِ نَهْرِ الْفُرَاتِ وَعَسْكَرَ هُنَاكَ، سَدَّ مَدْخَلَ النَّهْرِ وَحَوَّلَ الْمَاءَ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى.

ثُمَّ أَرْسَـــلَ فِرْقَةً مِنْ جُنْدِهِ إِلَى مَكَانٍ اسْـــمُهُ الْمَقَرُّ ، فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ الْقَادِمِ مِنْهُ جَيْشُ الْمُسْـــلِمِينَ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعَسْـــكِرُوا فِيهِ لِيُلَاقُوا الْمُسْلِمِينَ حِينَ يَأْتُونَ وَيُنْذِرُوهُ بِمَقْدَمِهِمْ .

بَدَأَ الْمَاءُ يَتَنَاقَصُ فِي النَّهْرِ، وَرَاحَتِ السُّـــفُنُ تَتَمَايَلُ عَلَى جَانِبَيْهَا حَتَّى جَنَحَتْ أَخِيرًا عَلَى رِمَالِ الْقَاعِ، تَوَقَّفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَسَـــأَلَ عَنْ سَـــبَبِ تَوَقُّفِ جَرَيَانِ الْمَاءِ فِي النَّهْرِ، أَخْبَرَهُ الْمَلَّاحُونَ بِأَنَّ الْفُرْسَ قَدْ سَدُّوا مَدْخَلَ النَّهْرِ، وَحَوَّلُوا الْمَاءَ عَنْ مَجْرَاهُ الطَّبِيعِيِّ.

اخْتَارَ ابْنُ الْوَلِيدِ عِدَّةَ مِئَاتٍ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، وَانْطَلَقَ بِهِمْ مُحَاذِيًا لِلنَّهْرِ؛ لِيُزِيلَ السَّدَّ حَتَّى تَعُودَ الْمِيَاهُ إِلَيْهِ. حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَقَرِّ.. وَهُنَاكَ.. شَاهَدَ خُيُولًا لِلْفُرْسِ فَأَمَرَ فُرْسَانَهُ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ.

نَزَلَ الْفُرْسَـــانُ مِنْ فَوْقِ خُيُولِهِمْ، فِي حَذَرٍ تَقَدَّمُوا إِلَى الأَمَامِ، تَسْبِقُهُمْ سُيُوفُهُمْ وَرِمَاحُهُمْ تَبْحَثُ عَمَّنْ تَقْتُلُهُ، وَجَدُوا جُنُودَ الْفُرْسِ يَغُطُّونَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، أَجْهَزُوا عَلَيْهِمْ جَمِيعًا وَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ، وَغَنِمُوا خَيْلَهُمْ وَسِـــلَاحَهُمْ وَمَتَاعَهُمْ، وَانْطَلَقُوا مُسْرِعِينَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى حَيْثُ يُعَسْكِرُ ابْنُ حَاكِمِ الْحِيرَةِ الْفَارِسِيِّ فِي بَادِقِلِي.

اقْتَحَمُوا الْمُعَسْـــكَرَ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفُرْسِ مَعْرَكَـــةٌ قَصِيرَةٌ لَكِنَّهَا عَنِيفَةٌ

وَشَرِسَةٌ، انْتَهَتْ بِهَزِيمَةِ الْفُرْسِ وَقَتْلِ قَائِدِهِمْ، وَهُرُوبِ مَنِ اسْتَطَاعَ الْهَرَبَ مِنْهُمْ.
وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّغُوا لِإِزَالَةِ السَّدِّ الَّذِي يَعُوقُ الْمَاءَ عَنِ الْجَرَيَانِ فِي نَهْرِ الْفُرَاتِ.

أَزَالَ ابْنُ الْوَلِيدِ وَالْفُرْسَانُ الَّذِين مَعَهُ السَّدَّ مِنْ أَمَامِ الْمَاءِ، فَانْدَفَعَ إِلَى النَّهْرِ يَمْلَأُ جَانِبَيْهِ وَيَرْتَفِعُ بِالسُّفُنِ عَنِ الرِّمَالِ وَيَحْمِلُهَا إِلَى الْحِيرَةِ . وَأَرْسَلَ إِلَى بَاقِي الْجَيْشِ لِلِّحَاقِ بِهِ، وَسَارَ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الشَّمَالِ حَيْثُ صَارَتِ الْحِيرَةُ قَرِيبَةً مِنْهُمْ.

عَرَفَ حَاكِمُ الْحِيرَةِ الْفَارِسِيُّ بِمَقْتَلِ وَلَدِهِ وَهَزِيمَةِ قُوَّاتِهِ، فَأَدْرَكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ صَارُوا قَرِيبِينَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَنْ يَقْدِرَ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَأَخَذَ مَا تَبَقَّى لَهُ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ، وَهَرَبَ بِهِمْ إِلَى شَرْقِ الْفُرَاتِ وَتَرَكَ الْعَرَبَ الْمُوَالِينَ لَهُ يُوَاجِهُونَ مَصِيرَهُمْ وَحْدَهُمْ .

وَصَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَالْفُرْسَانُ الَّذِينَ مَعَهُ إِلَى قَصْرِ الْخَوَرْنَقِ، وَقَفُوا هُنَاكَ يَنْتَظِرُونَ وُصُولَ بَقِيَّةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى قُصُورِ الْحِيرَةِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي تُشْبِهُ الْحُصُونَ الْمَنِيعَةَ، وَرَاحَ يُسَلِّي نَفْسَهُ بِالْفُرْجَةِ عَلَى حَدَائِقِهَا الْعَامِرَةِ الَّتِي تَنْسَابُ جَدَاوِلُ الْمَاءِ بَيْنَ جَوَانِبِهَا.

تَمَنَّى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنْ يُسْلِمَ سُكَّانُهَا الْعَرَبُ الَّذِيْنَ تَنَصَّرُوا حَتَّى لَا يُضْطَرَّ لِقِتَالِهِمْ، لَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ أُمْنِيَّتَهُ لَنْ تَتَحَقَّقَ حِينَ رَآهُمْ يَدْخُلُونَ حُصُونَهُمْ، وَيَمْلَأُونَ مَخَازِنَهَا بِالزَّادِ الَّذِي يَكْفِيهِمْ شُهُورًا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، ثُمَّ غَلَّقُوا الأَبْوَابَ خَلْفَهُمْ وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ صَارُوا بَعِيدِينَ عَنْ سُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ.

عَرَفَ الْقَائِدُ أَنَّ عَرَبَ الْحِيرَةِ الْمُتَنَصِّرِينَ يَنْوُونَ الْقِتَالَ، فَانْتَظَرَ حَتَّى يَكْتَمِلَ وُصُولُ جَيْشِهِ، وَلْيَفْعَلِ اللهُ مَا يَشَاءُ، وَلْتُفْتَحْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ لاسْتِقْبَالِ الشُّهَدَاءِ.

مَعْرَكَةُ الْحِيرَةِ

حِينَ اكْتَمَلَ وُصُولُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، عِنْدَ قَصْرِ الْخَوَرْنَقِ الَّذِي بَنَاهُ النُّعْمَانُ ابْنُ الْمُنْذِرِ، أَخْبَرَ ابْنُ الْوَلِيدِ قُوَّادَ جَيْشِهِ بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ هُنَاكَ جَيْشٌ لِيُقَاتِلُوهُ، فَلَيْسَ فِي الْحِيرَةِ غَيْرُ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ، وَقَدْ هَرَبَ أَمِيرُهُمُ الْفَارِسِيُّ وَتَرَكَهُمْ يُوَاجِهُونَ مَصِيرَهُمْ وَحْدَهُمْ. وَأَنَّهُمْ لَا يَنْوُونَ الاسْتِسْلَامَ؛ فَقَدْ رَآهُمْ وَهُمْ يَجْمَعُونَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَيَدْخُلُونَ بِهِ إِلَى حُصُونِهِمْ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ قَرَّرُوا الْقِتَالَ.

عَقَدَ قَادَةُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ اجْتِمَاعًا يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ مَاذَا يَفْعَلُونَ. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مُحَاصَرَةِ الْحُصُونِ حَتَّى يَخْرُجُوا لِلْقِتَالِ، أَوْ يُسْلِمُوا وَيُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَدْفَعُوا الْجِزْيَةَ .

وَبَدَأَ الْمُجَاهِدُونَ فِي تَنْفِيذِ خُطَّتِهِمْ، جَعَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ لِنَفْسِهِ قَاعِدَةً لِلْقِيَادَةِ بَعِيدًا عَنِ الْقُصُورِ، وَقَسَّمَ الْمُقَاتِلِينَ إِلَى أَرْبَعِ فِرَقٍ، وَجَعَلَ لِكُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهَا أَمِيرًا، وَكَلَّفَ كُلَّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ بِمُحَاصَرَةِ قَصْرٍ مِنَ الْقُصُورِ الأَرْبَعَةِ:

فَضِرَارُ بْنُ الأَزْوَرِ وَفِرْقَتُهُ لِحِصَارِ الْقَصْرِ الأَبْيَضِ.

وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ لِحِصَارِ قَصْرِ الْعَبْسِيِّينَ .

وَضِرَارُ بْنُ مُقَرِّنٍ لِحِصَارِ قَصْرِ ابْنِ مَازِنٍ.

وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ لِحِصَارِ قَصْرِ ابْنِ بَقِيلَةَ.

وَقَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ الْقَادَةُ بِقُوَّاتِهِمْ.. أَوْصَاهُمْ قَائِدُهُمْ قَائِلًا:

- ادْعُوهُمْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلَاثٍ: الإِسْــلَامِ.. أَوِ الْجِزْيَــةِ.. أَوِ الْقِتَالِ، وَأَمْهِلُوهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا، وَلَا تُمَكِّنُوا عَدُوَّكُمْ مِنْ إِيذَائِكُمْ فَيَطْمَعُوا فِي النَّصْرِ عَلَيْكُمْ، لَكِنْ رُدُّوا عَلَيْهِمْ بِكُلِّ قُوَّةٍ تَمْلِكُونَ .

وَتَحَرَّكَ الْقَادَةُ مُحَمَّلِينَ بِوَصَايَا سَــيْفِ اللهِ الْمَسْلُولِ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ، ذَهَبَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ وَحَاصَرَتِ الْحِصْنَ الْمُكَلَّفَةَ بِحِصَارِهِ، أَبْلَغُوا مَنْ بِدَاخِلِهِ بِرِسَــالَةِ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ وَخَيَّرُوهُمْ بَيْنَ ثَلَاثٍ.. وَأَمْهَلُوهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا يُقَرِّرُونَ مَاذَا يَخْتَارُونَ.

ظَنَّ الْعَرَبُ الْمُتَنَصِّرَةُ دَاخِلَ الْحُصُونِ أَنَّهُمْ فِي أَمَانٍ مِنْ سُــيُوفِ الْمُسْــلِمِينَ؛ فَقُصُورُهُمْ حَصِينَةٌ مَنِيعَــةٌ، لَنْ يَقْدِرُوا عَلَى تَخَطِّي أَسْــوَارِهَا أَوْ تَجَاوُزِ أَبْوَابِهَا، وَرَاحُوا يَسْتَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ مِنْ فَوْقِ الأَسْوَارِ.

سَمِعَ الْمُجَاهِدُونَ أَصْوَاتًا تَأْتِيهِمْ مِنْ دَاخِلِ الْحُصُونِ لِبَعْضِهَا تَقُولُ:

- عَلَيْكُمْ بِالْخَزَازِيفِ.

لَمْ يَعْرِفُوا مَاذَا تَعْنِــي الْخَزَازِيفُ هَذِهِ، لَكِنَّ كُلَّ قَائِدٍ مِــنَ الْقُوَّادِ الأَرْبَعَةِ أَمَرَ مُقَاتِلِيــهِ أَنْ يَبْتَعِدُوا عَنْ مَرْمَى أَهْلِ الْقُصُورِ، فَابْتَعَدُوا وَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ مَاذَا يَكُونُ هَذَا السِّلَاحُ الْجَدِيدُ.

صَعِدَ جُنُودُ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةُ إِلَى فَوْقِ أَسْطُحِ الْقُصُورِ، يَدْفَعُونَ أَمَامَهُمْ سِلَاحَهُمُ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْهُ الْعَرَبُ. وَرَاحُوا يَنْقُلُونَ إِلَيْهِ ذَخِيرَتَهُ كُرَاتٍ ضَخْمَةً مِنَ الْخَزَفِ.

كَانَتِ الْخَزَازِيفُ مَقَالِيعَ ضَخْمَةً، وَبَدَأَ جُنُودُ الْعَــرَبِ الْمُتَنَصِّرَةُ يَضَعُونَ بِهَا كُرَاتِ الْخَزَفِ، وَيَقْذِفُونَ بِهَا عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ.

لَمْ تَصِلْ كُرَاتُ الْخَزَفِ إِلَى حَيْثُ يَقِفُ الْمُسْلِمُونَ، اصْطَدَمَتْ بِالأَرْضِ وَتَنَاثَرَتْ بَعِيدًا عَنْهُمْ، فَكَانَ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَى الْهُجُومِ تَنْفِيذًا لأَمْرِ الْقَائِدِ الأَعَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛ حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعَرَبُ الْمُتَنَصِّرَةُ فِي النَّصْرِ عَلَيْهِمْ فَتَشْتَدَّ هَجَمَاتُهُمْ، وَرُبَّمَا كَانَ هُنَاكَ أَسْلِحَةٌ جَدِيدَةٌ لَا يَعْرِفُونَهَا.

أَصْدَرَ كُلُّ قَائِدٍ مِنَ الْقَادَةِ الأَرْبَعَةِ أَمْرًا لِفِرْقَةِ النَّبَّالَةِ أَنْ تَسْتَعِدَّ، تَحَرَّكَ رُمَاةُ السِّهَامِ إِلَى الصُّفُوفِ الأُولَى، أَطْلَقُوا سِهَامَهُمْ تَخْتَرِقُ الْفَضَاءَ لِتَصِلَ إِلَى قُلُوبِ الْجُنُودِ فَوْقَ الأَسْوَارِ، وَمِنْهَا مَا تَتَخَطَّى الأَسْوَارَ وَتَصِلُ إِلَى دَاخِلِ الْقُصُورِ تَقْتُلُ مَنْ تُصِيبُهُ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ مُقَاتِلٍ وَغَيْرِ مُقَاتِلٍ، وَلَا تَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ الرَّاهِبِ فِي مَعْبَدٍ وَالرَّجُلِ الَّذِي فِي الشَّارِعِ.

أَصَابَتْ سِهَامُ الْمُجَاهِدِينَ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ الْمُتَحَصِّنِينَ دَاخِلَ قُصُورِهِمْ، وَظَلَّتْ تَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مِثْلَ الْمَطَرِ، تَحْمِلُ الْمَوْتَ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

تَرَاجَعَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْجُنُودِ مِنْ فَوْقِ أَسْطُحِ الْقُصُورِ خَوْفًا مِنْ سِهَامِ الْمُسْلِمِينَ وَاخْتَفَوْا تَمَامًا، وَاخْتَفَتْ مَعَهُمْ خَزَائِنُهُمْ .

هَجَمَ فُرْسَانُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى أَبْوَابِ الْقُصُورِ وَحَطَّمُوهَا، وَانْدَفَعُوا إِلَى الدَّاخِلِ فِي مَوْجَاتٍ تَهْدِرُ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، تُزَلْزِلُ نُفُوسَ النَّصَارَى وَتَبُثُّ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَدَأَتِ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ عَمَلَهَا، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ لاسْتِقْبَالِ أَرْوَاحِهِمُ الشِّرِّيرَةِ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يَرْفُضُونَ الإِسْلَامَ دِينًا.

صَعُبَ عَلَى الْقَسَاوِسَةِ أَنْ يَتَمَادَى أَهْلُهُمْ فِي غَيِّهِمْ وَعِنَادِهِمُ اللَّذَيْنِ يَدْفَعُ النَّاسُ حَيَاتَهُمْ ثَمَنًا لَهُمَا ، فَخَرَجَ عَدَدٌ مِنْهُمْ مِنْ أَدْيِرَتِهِمْ وَرَاحُوا يَجُوبُونَ الشَّوَارِعَ وَهُمْ يَصْرُخُونَ فِي قَوْمِهِمْ يُوَبِّخُونَهُمْ وَيَقُولُونَ لَهُمْ:

- يَا أَهْلَ الْقُصُورِ.. مَا يَقْتُلُنَا غَيْرُكُمْ.

لَمْ يَسْتَجِبْ أَهْلُ الْقُصُورِ لِنَدَاءَاتِ قَسَاوِسَتِهِمْ، حَاوَلُوا الصُّمُودَ أَمَامَ هَجَمَاتِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَمَلِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَدَدُ مِنْ سَادَتِهِمُ الْفُرْسُ، وَحِينَ عَرَفُوا أَنَّهُمْ وَاهِمُونَ وَلَنْ يُنْقِذَهُمْ أَحَدٌ مِنْ سُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ، أَدْرَكُوا أَنَّ الْهَزِيمَةَ قَادِمَةٌ لَا مَحَالَةَ، فَصَاحُوا يَتَوَسَّلُونَ وَيَقُولُونَ:

- يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ.. قَبِلْنَا وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، فَكُفُّوا عَنَّا.

كَفَّ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الْهُجُومِ وَأَوْقَفُوا الْقِتَالَ، وَوَقَفُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ ، صَارُوا يُحَاصِرُونَ الْعَرَبَ الْمُتَنَصِّرَةَ مِنَ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ.

طَلَــبَ زُعَمَاءُ الْقُصُورِ أَنْ يُقَابِلُوا خَالِدًا، صَاحَبَهُمْ قُــوَّادُ الْفِرَقِ الأَرْبَعَةِ حَتَّى مَوْقِعِ قِيَادَتِهِ، اسْــتَقْبَلَهُمْ خَالِدٌ الْوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الصُّلْحَ وَأَعْلَنُوا اسْتِعْدَادَهُمْ لِدَفْعِ الْجِزْيَةِ.

قَبِلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَرْضَ الصُّلْحِ بِالرَّغْمِ مِنْ حُزْنِهِ عَلَى عَدَمِ إِسْــلَامِهِمْ، فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يُسْــلِمُوا وَيَتْرُكَهُمْ فِي حَالِهِمْ دُونَ قِتَــالٍ أَوْ جِزْيَةٍ، لَكِنَّهُمُ اخْتَارُوا أَنْ يَظَلُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَكَتَبُوا الْعُهُودَ بَيْنَهُمْ وَوَقَّعُوا عَلَيْهَا، وَصَارَتِ الْحِيرَةُ قَاعِدَةً لِلْجُيُوشِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَمَقَرًّا لِلْقِيَادَةِ.

مَعْرَكَةُ الأَنْبَارِ

اسْتَقَرَّ الْحَالُ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مُعْظَمَ بِلَادِ الْعِرَاقِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَطْ، وَجَلَسَ فِي الْحِيرَةِ فِي انْتِظَارِ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ حَتَّى يَتَّجِهَ إِلَى فَتْحِ الْمَدَائِنِ الَّتِي يَتَّخِذُ مِنْهَا الْفُرْسُ عَاصِمَةً لَهُمْ فِي الْعِرَاقِ، وَيُنْهِيَ وُجُودَهُمْ تَمَامًا فِي الْبِلَادِ.

وَبَيْنَمَا الْقَائِدُ الْفَاتِحُ يُخَطِّطُ لِتَنْفِيذِ حُلْمِهِ، جَاءَتْهُ رِسَالَةٌ مِنَ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه يُخْبِرُهُ فِيهَا بِأَنَّ عِيَاضَ بْنَ غَنْمٍ وَجَيْشَهُ مُحَاصَرُونَ فِي دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَيَأْمُرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ وَفَكِّ الْحِصَارِ عَنْهُ.

كَانَ بَيْنَ الْحِيرَةِ وَدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ مَدِينَتَانِ تُعَسْكِرُ فِيهِمَا حَامِيَاتٌ فَارِسِيَّةٌ، وَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَأْخُذَ الْقَائِدُ جَيْشَهُ وَيَتَّجِهَ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ تَارِكًا مَا فَتَحَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْعِرَاقِ لِيَنْقَضَّ عَلَيْهِ الْفُرْسُ وَيَسْتَرِدُّونَهُ ثَانِيَةً.

قَرَّرَ سَيْفُ اللهِ الْمَسْلُولُ أَنْ يُنْهِيَ الْوُجُودَ الْفَارِسِيَّ فِي الْمِنْطَقَةِ كُلِّهَا حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ لِدَعْمِ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ، فَأَرْسَلَ فِرْقَةً مِنْ جُنُودِهِ لِتَسْتَطْلِعَ لَهُ أَحْوَالَ أَوَّلِ حَامِيَةٍ فِي الطَّرِيقِ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ .

عَادَتْ فِرَقُ الاسْتِطْلَاعِ تُخْبِرُ الْقَائِدَ بِأَنَّ الْحَامِيَةَ الْفَارِسِيَّةَ تُعَسْكِرُ فِي مَدِينَةِ الأَنْبَارِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ مُحَصَّنَةٌ بِأَسْوَارٍ عَالِيَةٍ وَأَبْرَاجٍ مَنِيعَةٍ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّهَا عَلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لِنَهْرِ الْفُرَاتِ، وَقَدْ حَفَرُوا حَوْلَهَا خَنْدَقًا وَاسِعًا عَمِيقًا وَمَلَأُوهُ بِالْمَاءِ، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّ كُلَّ سُكَّانِهَا مِنَ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ، وَأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ

مِنَ الْقِلَاعِ وَأَسْطُحِ الأَسْوَارِ مَوَاقِعَ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا.

عَقَدَ الْقَائِدُ اجْتِمَاعًا مَعَ قَادَةِ قُوَّاتِهِ، اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ يَمْنَعُ الْمُجَاهِدَ مِنَ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ.. وَعَلَى الْفَوْرِ.. أَمَرَ الْقَائِدُ بِالزَّحْفِ إِلَى مَدِينَةِ الأَنْبَارِ، وَالْمَسَافَةُ بَيْنَها وَبَيْنَ الْحِيرَةِ لَيْسَتْ طَوِيلَةً، فَوَصَلُوا إِلَيْهَا فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ.

وَقَفُوا عَلَى الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ لِلْفُرَاتِ وَرَاحُوا يَتَفَقَّدُونَ حُصُونَ الأَنْبَارِ، وَحَامِيَتُهَا فَوْقَ الأَسْطُحِ وَفِي الأَبْرَاجِ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا.

لَمْ يَكُنْ أَمَامَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنْ يَعْبُرُوا النَّهْرَ وَيُحَاصِرُوا الْمَدِينَةَ، فَقَدِ اعْتَادُوا رُكُوبَ الْبَحْرِ. أَحْضَرُوا السُّفُنَ وَعَبَرُوا بِسِلَاحِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ إِلَى الشَّاطِئِ الشَّرْقِيِّ لِلنَّهْرِ.. بَيْنَمَا عُيُونُ قُوَّاتِ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ تُرَاقِبُهُمْ، وَقَدْ أَصَابَهُمُ الرُّعْبُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمُ الْخُرُوجَ لِقِتَالِهِمْ، وَوَقَفُوا فَوْقَ الأَسْوَارِ انْتِظَارًا لِعُبُورِ الْمُسْلِمِينَ.

حِينَ صَارَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَ الْخَنْدَقِ بَدَأَتِ الْحَامِيَةُ تَرْمِيهِمْ بِالسِّهَامِ، فَأَمَرَ خَالِدٌ مَجْمُوعَةَ الرُّمَاةِ بِأَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُصَوِّبُوا سِهَامَهُمْ نَحْوَ عُيُونِهِمْ وَأَنْ يَضْرِبُوا بِكَثَافَةٍ.

انْطَلَقَتْ سِهَامُ الإِسْلَامِ لِتُصِيبَ هَدَفَهَا بِكُلِّ دِقَّةٍ، وَفَقَأَتْ أَلْفَ عَيْنٍ فِي الرَّمْيَةِ الْوَاحِدَةِ! فَهَرَبَ الْمُقَاتِلُونَ، وَسَادَ الْهَرْجُ وَالْمَرْجُ فِي دَاخِلِ الْمَدِينَةِ، وَتَصَايَحَ النَّاسُ فِي الدَّاخِلِ يَقُولُونَ:

- ذَهَبَتْ عُيُونُ أَهْلِ الأَنْبَارِ.

خَرَجَ قَائِدُ الْفُرْسِ فِي الْمَدِينَةِ يَسْأَلُ عَمَّا يَجْرِي، وَحِينَ عَلِمَ بِالْخَبَرِ، رَاحَ يَنْظُرُ فِي عُيُونِ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرِينَ يَبْحَثُ فِيهَا عَنْ شَجَاعَةٍ وَرَغْبَةٍ فِي الْقِتَالِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ إلا الرُّعْبَ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ وَالْخَوْفَ مِنْ قِتَالِهِمْ، فَأَدْرَكَ أَنَّهُمْ لَنْ يَكُونُوا عَوْنًا لَهُ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْحِصْنِ؛ فَقَدْ هَزَمَهُمُ الْخَوْفُ قَبْلَ أَنْ يُقَاتِلُوا. فَكَّرَ فِي حَامِيَتِهِ وَعَدَدِ فُرْسَانِهَا وَقُوَّتِهَا، عَرَفَ أَنَّهَا لَنْ تَقْدِرَ وَحْدَهَا عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ سَبَقَ لَهُمُ النَّصْرُ عَلَى جُيُوشٍ أَكْبَرَ مِنْهَا بِكَثِيرٍ، فَقَرَّرَ أَنْ يَطْلُبَ الصُّلْحَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يُقَاتِلَهُمْ.

أَرْسَلَ الْقَائِدُ الْفَارِسِيُّ شُرُوطَ الْصُلْحِ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْمِلُ وَاحِدًا مِنَ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَقْبَلُهَا الْمُسْلِمُونَ، لَا هُوَ قَبِلَ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ، وَلَا أَقَرَّ بِالْجِزْيَةِ، وَرَفَضَ الْقِتَالَ وَيَطْلُبُ الصُّلْحَ، فَرَفَضَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَقَرَّرَ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ.

كَانَ السُّؤَالُ هُوَ: كَيْفَ يُقَاتِلُ الْمُسْلِمُونَ مَنْ تَحَصَّنُوا خَلْفَ الأَسْوَارِ الْعَالِيَةِ وَلَا يَخْرُجُونَ؟ وَكَيْفَ يَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَالْخَنْدَقُ الْمَائِيُّ وَاسِعٌ وَعَمِيقٌ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الأَبْوَابِ؟

دَارَ الْقَائِدُ حَوْلَ سُورِ الْمَدِينَةِ يَتَفَقَّدُ الْخَنْدَقَ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ جَيِّدًا، وَأَخِيرًا تَوَقَّفَ عِنْدَ نُقْطَةٍ اكْتَشَفَ أَنَّهَا أَضْيَقُ مَكَانٍ فِي الْخَنْدَقِ، وَقَفَ يَتَأَمَّلُهَا جَيِّدًا.. كَيْفَ سَيَعْبُرُونَ وَالْخَنْدَقُ أَوْسَعُ كَثِيرًا مِنْ قَفْزَةِ حِصَانٍ؟ وَحَتَّى لَوْ قَفَزَهَا الْفُرْسَانُ، فَمَاذَا سَيَفْعَلُ الْبَاقُونَ؟ وَانْدَفَعَتْ تَسَاؤُلَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي ذِهْنِ الْقَائِدِ حَتَّى وَجَدَ حَلًّا لِمُشْكِلَتِهِ.

عَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ، أَمَرَ بِذَبْحِ كُلِّ الْجِمَالِ الْهَزِيلَةِ وَالْمَرِيضَةِ وَإِلْقَائِهَا فِي الْخَنْدَقِ عِنْدَ تِلْكَ النُّقْطَةِ الضَّيِّقَةِ، وَفِي النِّهَايَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصْنَعَ جِسْرًا فَوْقَ الْخَنْدَقِ مِنْ أَجْسَامِ الْجِمَالِ، وَعَبَرَ جَيْشُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَيْهِ وَأَحَاطُوا بِسُورِ الْمَدِينَةِ اسْتِعْدَادًا لِدُخُولِهَا.

أَدْرَكَ قَائِدُ جُنْدِ الْفُرْسِ أَنَّهُ لَنْ يَقْدِرَ عَلَى صَدِّ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَسْرَعَ طَالِبًا الصُّلْحَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِشُرُوطِ الإِسلَامِ، عَلَى أَنْ يَتْرُكُوهُ يَخْرُجُ سَالِمًا بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَحُرَّاسِهِ.

وَافَقَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى طَلَبِ الْقَائِدِ الْفَارِسِيِّ، وَوَقَّعَ مُعَاهَدَةَ الصُّلْحِ، وَسَمَحَ لَهُ بِالْخُرُوجِ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْمَدِينَةِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَتَرَكَ خَالِدٌ فِيهَا مَنْ يَحْكُمُهَا بِاسْمِ الإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ، وَوَاصَلَ طَرِيقَهُ إِلَى عَيْنِ التَّمْرِ.

مَعْرَكَةُ عَيْنِ التَّمْرِ

كَانَتْ عَيْنُ التَّمْرِ وَاحَةً جَمِيلَةً وَسَطَ الصَّحْرَاءِ، غَنِيَّةً بِعُيُونِ الْمِيَاهِ الْمَعْدِنِيَّةِ، وَغَابَاتِ أَشْجَارِ النَّخِيلِ وَالْفَوَاكِهِ، وَكَانَتْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، يَقْطُنُهَا الْعَرَبُ وَالنَّصَارَى الْمُوَالِينَ لِلْفُرْسِ.

كَانَ يَحْرُسُ عَيْنَ التَّمْرِ قُوَّةٌ فَارِسِيَّةٌ كَبِيرَةٌ بِقِيَادَةِ مِهْرَانَ بْنِ بِهْرَامَ، وَقُوَّةٌ عَرَبِيَّةٌ نَصْرَانِيَّةٌ مُوَالِيَةٌ لِلْفُرْسِ مُكَوَّنَةٌ مِنْ خَلِيطٍ مِنْ قَبَائِلِ النَّمِرِ وَتَغْلِبَ وَإِيَاد، بِقِيَادَةِ عُقَّة ابْنِ أَبِي عُقَّة.

حِينَ بَلَغَتْ أَخْبَارُ زَحْفِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ نَحْوَ الْوَاحَةِ، طَلَبَ عُقَّةُ الْعَرَبِيُّ مِنْ مِهْرَانَ الْفَارِسِيِّ أَنْ يُخْلِيَ لَهُ سَاحَةَ الْقِتَالِ، لِيُقَاتِلَ هُوَ وَجَيْشُهُ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ مُسَاعَدَتِهِ، وَقَالَ لَهُ:

- الْعَرَبُ أَعْلَمُ بِقِتَالِ الْعَرَبِ . فَدَعْنَا وَخَالِدًا.

دُهِشَ مِهْرَانُ مِنْ طَلَبِ عُقَّةَ، لَكِنَّهُ وَافَقَهُ عَلَى طَلَبِهِ وَقَالَ لَهُ:

- صَدَقْتَ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِقِتَالِ الْعَرَبِ، سَنَتْرُكُهُمْ لَكَ، وَإِنِ احْتَجْتَ إِلَيْنَا سَاعَدْنَاكَ.

اسْتَنْكَرَ قَادَةُ جَيْشِ الْفُرْسِ مُوَافَقَةَ مِهْرَانَ عَلَى الانْسِحَابِ مِنْ أَمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرْكِ عُقَّةَ يُقَاتِلُهُمْ وَحْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ:

- مَا فَعَلْتُهُ لَيْسَ إِلَّا خَيْرًا لَنَا وَشَرًّا لِعُقَّةَ، فَإِنِ انْتَصَرَ.. فَالنَّصْرُ لَنَا، وَإِنْ هَزَمَهُ خَالِدٌ نُقَاتِلُهُ وَنَحْنُ أَقْوِيَاءُ وَهُمْ ضُعَفَاءُ مُتْعَبُونَ.

خَرَجَ الْمَغْرُورُ عُقَّةُ مِنْ عَيْنِ التَّمْرِ وَسَارَ بَعِيدًا عَنِ الْوَاحَةِ، وَأَوْغَلَ فِي السَّيْرِ فِي الصَّحْرَاءِ عَلَى أَمَلِ أَنْ يَلْتَقِيَ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُفَاجِئَهُمْ بِالْقِتَالِ وَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لَهُ. وَنَقَلَتْ فِرْقَةُ الاسْتِطْلَاعِ أَخْبَارَ عُقَّةَ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، لَمْ يَسْمَعْ عَنْهُ مِنْ قَبْلُ، لَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ رِعْدِيدٌ سَارَ إِلَى حَتْفِهِ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَأَسْرَعَ بِالْجَيْشِ إِلَيْهِ.

وَصَلَ عُقَّةُ بِجَيْشِهِ إِلَى مِنْطَقَةٍ تُسَمَّى الْكَرْخَ، عَسْكَرَ فِيهَا وَعَبَّأَ قُوَّاتِهِ النَّصْرَانِيَّةَ وَوَقَفَ يُسَوِّي صُفُوفَهُ لِلْقِتَالِ. فِي الْوَقْتِ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ، وَاصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ وَوَقَفُوا فِي انْتِظَارِ أَنْ يَنْتَهِيَ عُقَّةُ مِنْ تَسْوِيَةِ صُفُوفِهِ.

نَظَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي عَيْنَيْ عُقَّةَ، عَلِمَ أَنَّهُ شَدِيدُ الْغُرُورِ، وَأَنَّ مِثْلَ هَذَا يُهْزَمُ مِنْ أَوَّلِ جَوْلَةٍ. قَرَّرَ أَنْ يَقُومَ بِعَمَلِيَّةٍ فِدَائِيَّةٍ جَرِيئَةٍ لَمْ يَقُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ.

اسْتَدْعَى خَالِدٌ عَدَدًا مِنْ أَمْهَرِ فُرْسَانِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يَخْطِفَ عُقَّةَ مِنْ وَسَطِ جَيْشِهِ. وَافَقُوا عَلَى مَا قَالَه وَتَحَمَّسُوا لَهُ، وَوَسَطَ دَهْشَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى..انْقَضُّوا جَمِيعًا يَخْتَرِقُونَ صُفُوفَ الْعَدُوِّ .

لَمْ يُصَدِّقِ الْجَمِيعُ مَا تَرَاهُ أَعْيُنُهُمْ، مَاذَا تُرِيدُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي تَخْتَرِقُ صُفُوفَ جَيْشٍ قُوَّتُهُ عَشَرَاتُ الآلَافِ، وَقَبْلَ أَنْ يُفِيقُوا مِنْ دَهْشَتِهِمْ كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَدْ أَسَرَ قَائِدَهُمْ عُقَّةَ مِنْ وَسَطِ جُنُودِهِ، وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا يَحْمِلُ طِفْلًا، وَعَادَ بِهِ إِلَى صُفُوفِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ.

أَصَابَ الرُّعْبُ قُلُوبَ جَيْشِ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ، وَتَجَمَّدَ الدَّمُ فِي عُرُوقِهِمْ، وَرَكِبَهُمُ الْفَزَعُ وَالرُّعْبُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَهَرَبُوا جَمِيعًا مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ فِي اتِّجَاهِ حِصْنِهِمْ يَحْتَمُونَ فِيهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْرَعِ الانْتِصَارَاتِ الَّتِي حَقَّقَهَا جَيْشُ الْمُجَاهِدِينَ دُونَ أَنْ يَخْرُجَ سَيْفٌ وَاحِدٌ مِنْ غِمْدِهِ، أَوْ يَهْتَزَّ رُمْحٌ فِي الْهَوَاءِ.

وَاصَلَ جَيْشُ الْمُجَاهِدِينَ طَرِيقَهُ نَحْوَ عَيْنِ التَّمْرِ، لَمْ يُفَكِّرِ الْقَائِدُ فِي الأَمْرِ بِمُطَارَدَةِ فُلُولِ الْجَيْشِ الْهَارِبِ مِنَ الْقِتَالِ، يَعْرِفُ أَيْنَ هُمْ ذَاهِبُونَ، وَسَيَهْبِطُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ فِي حِصْنِهِمُ الَّذِي إِلَيْهِ يَهْرُبُونَ.

وَأَسْرَعَتْ عُيُونُ الْقَائِدِ الْفَارِسِيِّ مِهْرَانَ بْنِ بِهْرَامَ تَنْقُلُ إِلَيْهِ الأَخْبَارَ وَهُوَ فِي حِصْنِ عَيْنِ التَّمْرِ، فَأَدْرَكَ أَنَّ الْمَوْتَ قَادِمٌ إِلَيْهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ بِقِتَالِ جَيْشٍ لَمْ يُهْزَمْ قَطُّ.

قَرَّرَ مِهْرَانُ أَنْ يَنْجُوَ بِجَيْشِهِ تَارِكًا أَعْوَانَهُ مِنَ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرِينَ يُوَاجِهُونَ مَصِيرَهُمْ عَلَى يَدِ الْقَائِدِ الْمُسْلِمِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ. وَخَرَجُوا مِنَ الْحِصْنِ وَاتَّجَهُوا إِلَى الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ فِي الْعِرَاقِ.

حِينَ وَصَلَ جَيْشُ عُقَّةَ الْهَارِبِ إِلَى الْحِصْنِ، وَجَدُوا أَبْوَابَهُ مَفْتُوحَةً.. فَتَدَافَعُوا فِي الدُّخُولِ كَقَطِيعٍ مَرْعُوبٍ مِنْ أُسُودٍ تُطَارِدُهُ، وَحِينَ دَخَلُوهُ اكْتَشَفُوا هُرُوبَ جَيْشِ الْفُرْسِ، وَصَارُوا لَا مُعِينَ لَهُمْ لِصَدِّ هُجُومِ جَيْشِ خَالِدٍ الَّذِي يَزْحَفُ خَلْفَهُمْ، فَغَلَّقُوا الأَبْوَابَ وَصَارُوا يَتَخَبَّطُونَ فِي الدَّاخِلِ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ.

وَوَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ وَحَاصَرَ الْحِصْنَ، أَدْرَكَ الْعَرَبُ الْمُتَنَصِّرَةُ فِي الدَّاخِلِ أَنَّهُ لَيْسَ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يُرْسِلُوا إِلَى خَالِدٍ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الصُّلْحَ، لَكِنَّهُ رَفَضَ صُلْحًا مَعَ أُنَاسٍ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَبَدَةِ النَّارِ، وَهُمُ الَّذِينَ جَاءُوا لِقِتَالِهِمْ، وَأَمَرَ بِدُخُولِ الْحِصْنِ وَضَرْبِ رِقَابِهِمْ .

تَرَكَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَاكِمًا مُسْلِمًا عَلَى عَيْنِ التَّمْرِ، يَحْكُمُ فِيمَا بَيْنَ أَهْلِهَا بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ، وَتَوَجَّهَ بِنِصْفِ جَيْشِهِ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ لِفَكِّ الْحِصَارِ عَنْ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ وَجَيْشِهِ.

مَعْرَكَةُ دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ

كَانَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ قَدْ وَصَلَ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، يَحْمِلُ وَصِيَّةَ الْخَلِيفَةِ الصِّدِّيقِ، بِأَنْ يُخَيِّرَ أَهْلَهَا بَيْنَ ثَلَاثٍ.. أَنْ يُسْلِمُوا وَهَذَا خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُعَلِّمَهُمْ أُصُولَ دِينِهِمْ وَيَفْرِضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةَ الْمَالِ بِمَا أَمَرَ اللهُ، وَإِنْ رَفَضُوا الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُقِرُّوا بِالْجِزْيَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَيَدْخُلُوا فِي حِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ يَمْنَعُونَ عَنْهُمُ الأَذَى بِشَرْطِ أَلَّا يَغْدِرُوا، وَإِنْ غَدَرُوا فَالْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ أَبْرِيَاءُ.

لَمْ تُوَافِقْ قَبِيلَةُ كُلَيْبٍ الْعَرَبِيَّةُ الْمُتَنَصِّرَةُ، وَالَّتِي تَسْكُنُ دَوْمَةَ الْجَنْدَلِ عَلَى أَيٍّ مِنَ الشَّرْطَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، وَاخْتَارَتِ الْقِتَالَ، وَدَخَلَ النَّاسُ إِلَى حُصُونِهِمُ الْمَنِيعَةِ الَّتِي جَهَّزُوهَا وَمَلَأُوا مَخَازِنَهَا بِالطَّعَامِ الَّذِي يَكْفِيهِمْ شُهُورًا.

حَاصَرَ عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ الْحُصُونَ وَعَسْكَرَ بِالْقُرْبِ مِنْ أَبْوَابِهَا، انْتِظَارًا لأَنْ يَيْأَسَ النَّاسُ فِي الدَّاخِلِ وَيَخْرُجُوا لِفَضِّ الْحِصَارِ فَيُقَاتِلَهُمْ.

وَالنَّاسُ فِي الدَّاخِلِ لَدَيْهِمْ مَا يَكْفِيهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَفِي انْتِظَارِ أَنْ يَيْأَسَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ وَيَنْسَحِبَ بَعِيدًا وَيَفُكَّ عَنْهُمُ الْحِصَارَ.

لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ جَيْشَ الْمُجَاهِدِينَ قَدْ جَاءَهُمْ وَلَنْ يَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ إِلَّا وَقَدْ رَفْرَفَتْ رَايَةُ الإِسْلَامِ عَلَى تِلْكَ الْحُصُونِ، وَبَدَأَ التَّرَاشُقُ بِالنِّبَالِ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ، وَدَامَتِ الْحَالُ عِدَّةَ أَسَابِيعَ حَتَّى تَعِبَ الطَّرَفَانِ.. وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَيٌّ مِنْهُمَا أَنْ يُضْعِفَ مِنْ قُوَّةِ الآخَرِ أَوْ يَنْتَصِرَ عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ عِيَاضٌ إِلَى الصِّدِّيقِ يُخْبِرُهُ بِحَالِهِ،

فَأَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي الْحِيرَةِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُسْرِعَ لِنَجْدَةِ عِيَاضٍ فِي دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ.

لَمْ يَكُنْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ يُخَالِفَ أَمْرًا لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ أَبَدًا، لِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْمِينِ طَرِيقِهِ إِلَى هُنَاكَ وَالْقَضَاءِ عَلَى الْحَامِيَاتِ الْفَارِسِيَّةِ فِي الأَنْبَارِ وَعَيْنِ التَّمْرِ؛ حَتَّى لَا يُهَاجِمُوهُ مِنَ الْخَلْفِ وَيَصِيرَ هُوَ وَعِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ بَيْنَ فَكَّيْ كَمَّاشَةِ الْفُرْسِ.

حِينَ فَتَحَ اللهُ الأَنْبَارَ وَعَيْنَ التَّمْرِ عَلَى أَيْدِي الْمُجَاهِدِينَ، وَصَارَتِ الْبِلَادُ آمِنَةً تَحْتَ مِظَلَّةِ الإِسْلَامِ مِنَ الأُبُلَّةِ حَتَّى عَيْنِ التَّمْرِ، أَخَذَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ سِتَّةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ فَقَطْ، وَتَرَكَ الْبَاقِيَ بِقِيَادَةِ عُوَيْمِ بْنِ كَاهِلٍ الأَسْلَمِيِّ لِحِمَايَةِ عَيْنِ التَّمْرِ مِنْ غَدْرِ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ، وَسَارَ فِي طَرِيقِ دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ لِنُصْرَةِ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ.

كَانَ لِلْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ وَالْمُحْتَمِيَةِ دَاخِلَ حُصُونِهَا الْقَوِيَّةِ فِي دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ زَعِيمَانِ: أَحَدُهُمَا أُكَيْدِرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَالثَّانِي الْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ. وَحِينَ

وَصَلَتْهُمَا أَخْبَارُ زَحْفِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمَا، أَسْرَعَا يَطْلُبَانِ الدَّعْمَ مِنْ حُلَفَائِهِمَا مِنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَنَصِّرَةِ الْمُجَاوِرَةِ، فَلَبَّتْ تِلْكَ الْقَبَائِلُ نِدَاءَ الاسْتِغَاثَةِ بِحَمَاسٍ، وَأَرْسَلُوا فُرْسَانَهُمْ للانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْحِصْنِ؛ أَمَلًا فِي التَّغَلُّبِ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَالانْتِصَارِ عَلَيْهِمْ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ صَدِّ هُجُومِهِمْ عَلَى الْحِصْنِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُقَاتِلِي الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ صَارُوا كَثْرَةً لِدَرَجَةِ أَنَّ أَغْلَبَهُمْ عَسْكَرَ تَحْتَ جُدْرَانِ الْحِصْنِ لِعَدَمِ وُجُودِ أَمَاكِنَ لَهُمْ، فَإِنَّ أُكَيْدِرَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ خَائِفًا مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى قِيَادَةِ الرِّجَالِ إِلَى النَّصْرِ ، وَدَعَا إِلَى اجْتِمَاعٍ لِقَادَةِ الْحَرْبِ وَقَالَ لَهُمْ:

- قَدْ كُنَّا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلصُّمُودِ أَمَامَ حِصَارِ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ، لَكِنْ لَا فُرْصَةَ لَنَا أَمَامَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .

تَعَجَّبَ الرِّجَالُ مِنْ قَوْلِ أُكَيْدِرٍ، فَقَالَ مُؤَكِّدًا:

- أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِخَالِدٍ، لَا أَحَدَ يَرَى وَجْهَهُ فِي حَرْبٍ إِلَّا وَانْهَزَمَ.

رَفَضَ الْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ النَّصِيحَةَ، وَاعْتَذَرَ أُكَيْدِرٌ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي الْحَرْبِ، وَفَارَقَ قَوْمَهُ حَتَّى لَا يُوَاجِهَ خَالِدًا فِي حَرْبٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ مَهْزُومٌ فِيهَا.

قَبْلَ أَنْ يَصِلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِجَيْشِهِ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ بِقَلِيلٍ، تَرَكَ فِرْقَةً مِنَ الْجَيْشِ لِحِمَايَةِ ظَهْرِهِ احْتِيَاطِيًّا، وَوَاصَلَ سَيْرَهُ حَتَّى عَسْكَرَ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِصْنِ.

صَارَ الْحِصْنُ بَيْنَ فَكَّيْ كَمَّاشَةٍ مِنْ جَيْشَيِ الْمُسْلِمِينَ: عِيَاضُ بْنُ غَنْمٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنَ النَّاحِيَةِ الأُخْرَى.

انْتَظَرَ الْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ أَنْ يَبْدَأَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْقِتَالَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَبْدَأْ، فَقَرَّرَ هُوَ الْبَدْءَ بِالْهُجُومِ؛ قَسَّمَ جَيْشَهُ إِلَى فِرْقَتَيْنِ.. أَمَرَ الأُولَى أَنْ تُهَاجِمَ جَيْشَ عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ، فَصَدَّهَا عِيَاضٌ وَقَادَ الثَّانِيَةَ لِيُهَاجِمَ جَيْشَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَلَمْ يُحَرِّكْ سَيْفُ اللهِ سَاكِنًا وَلَمْ يُعْطِ الأَمْرَ بِالْقِتَالِ!

طَمِعَ الْجُودِيُّ فِي النَّصْرِ عَلَى خَالِدٍ، وَأَمَرَ بِالْهُجُومِ عَلَيْهِ، ظَلَّ الْجَيْشُ سَاكِنًا لَا حَرَكَةَ فِيهِ حَتَّى صَارَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ قَرِيبَةً جِدًّا، وَفَجْأَةً أَمَرَ ابْنُ الْوَلِيدِ بِالْهُجُومِ، فَانْدَفَعَ الْمُجَاهِدُونَ نَاحِيَةَ جَيْشِ الْجُودِيِّ بِسُرْعَةٍ وَعُنْفٍ كَبِيرَيْنِ شَلَّا تَفْكِيرَهُ، وَفِي دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ كَانَ خَالِدٌ قَدْ أَسَرَ الْجُودِيَّ وَمِئَاتٍ مِنْ قَبِيلَتِهِ، بَيْنَمَا فَرَّ الْبَاقُونَ فِي هَرْجٍ نَاحِيَةَ الْحِصْنِ، فَطَارَدَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ فِيهِمْ وَيَأْسِرُونَ، وَحِينَ رَأَى مَنْ فِي الْحِصْنِ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ أَغْلَقُوا الأَبْوَابَ! وَاكْتَمَلَتِ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ نَصَارَى الْعَرَبِ وَبَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ عَرَبِيٌّ مُتَنَصِّرٌ بَيْنَ الأَحْيَاءِ.

انْدَفَعَ الْمُجَاهِدُونَ نَحْوَ الأَبْوَابِ فَاقْتَلَعُوهَا، وَانْدَفَعُوا إِلَى الدَّاخِلِ وَأَصْوَاتُهُمْ تَعْلُو بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ، وَتَرْتَعِدُ قُلُوبُ قَطِيعِ أَعْدَاءِ اللهِ وَيَتَشَتَّتُ جَمْعُهُمْ، وَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ إِلَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ، فَكَفَّ الْمُجَاهِدُونَ عَنِ الْقِتَالِ؛ فَلَا يَصِحُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَقْتُلَ شَيْخًا أَوْ طِفْلًا أَوِ امْرَأَةً.

وَفَتَحَ اللهُ دَوْمَةَ الْجَنْدَلِ أَمَامَ دِينِهِ الْحَنِيفِ، وَهَرَبَ مِنْهَا الْفُرْسُ، وَامْتَثَلَ الْعَرَبُ الْمُتَنَصِّرَةُ لأَنْ يَكُونُوا فِي حِمَايَةِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ لِلْمُسْلِمِينَ.

مَعْرَكَةُ الْجِسْرِ

لَـمْ يُكْمِلْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيـدِ مَعَارِكَهُ مَعَ الْفُرْسِ، وَأَرْسَـلَ إِلَيْهِ الصِّدِّيقُ يَأْمُرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَى الشَّامِ؛ لِمُسَاعَدَةِ جُيُوشِ الْمُجَاهِدِينَ فِي قِتَالِ الرُّومِ وَنَشْرِ الإِسْلَامِ.

أَخَذَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ نِصْفَ جَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْعِرَاقِ وَتَوَجَّهَ إِلَى الشَّامِ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ النِّصْفَ الآخَرَ تَحْتَ قِيَادَةِ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ.

عَرَفَ الْفُرْسُ بِرَحِيلِ خَالِدٍ، لَمْلَمُوا فُلُولَ جُيُوشِهِمُ الْمَهْزُومَةِ، بَحَثُوا عَنْ أَكْثَرِ قَائِدٍ مِنْ قُوَّادِهِمْ يَكْرَهُ الْمُسْلِمِينَ، وَجَعَلُوهُ قَائِدًا عَلَى الْجَيْشِ، وَأَمَرُوهُ بِأَنْ يَزْحَفَ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنْ جَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ .

كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي اخْتَارُوهُ لِقِيَادَةِ جَيْشِ الْفُرْسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ اسْمُهُ بَهْمَنُ جَاذَوَيْهِ، وَكَانَ مِنْ أَمْهَرِ الْقَادَةِ وَأَكْثَرِهِمْ دَهَاءً ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ كَانَ مِنْ أَشَدِّ الْقَادَةِ الْفُرْسِ حِقْدًا عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ.

اخْتَارَ بَهْمَنُ جَاذَوَيْهِ أَنْ يُزَوِّدَ جَيْشَـهُ بِسِـلَاحٍ جَدِيدٍ وَهُوَ الْفِيَلَةُ؛ حَتَّى يَتَفَوَّقَ عَلَى أُسْلُوبِ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ أُسْـلُوبُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ، وَاخْتَارَ لَهَا أَمْهَرَ فُرْسَانِ الْفُرْسِ لِقِيَادَتِهَا وَالْقِتَالِ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَدَأَ يُجَهِّزُ جَيْشَهُ .

أَخْبَرَتْ عُيُونُ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ بِمَا يُدَبِّرُهُ الْفُرْسُ، أَدْرَكَ أَنَّهُ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهَا لِقِلَّةِ عَدَدِ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ مَعَهُ، انْسَحَبَ بِهِمْ إِلَى جَنُوبِ الْعِرَاقِ، وَأَسْرَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ يُخْبِرُ الصِّدِّيقَ بِمَا يَحْدُثُ وَيَطْلُبُ الْمَدَدَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ.

حِينَ وَصَلَ الْمُثَنَّى إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ الصِّدِّيقُ مَرِيضًا يَحْتَضِرُ، وَسُرْعَانَ مَا انْتَقَلَ إِلَى الْحَيَاةِ الآخِرَةِ؛ لِيَجْزِيَهُ اللهُ خَيْرًا عَلَى مَا قَدَّمَهُ لِلإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَتَوَلَّى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ خِلَافَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ حَالَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَدَدَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ .

لَمْ يَتَرَدَّدْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَحْظَةً، قَامَ فِي النَّاسِ مُنَادِيًا بِالْجِهَادِ ضِدَّ الْفُرْسِ فِي سَبِيلِ اللهِ، تَجَمَّعَ حَوْلَهُ أَلْفُ رَجُلٍ، جَعَلَ أَبَا عُبَيْدِ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّوَجُّهِ لِلانْضِمَامِ إِلَى جَيْشِ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْعِرَاقِ .

تَحَرَّكَ الْجَيْشُ الْفَارِسِيُّ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْفُرْسَانِ وَسِلَاحِ الْمُدَرَّعَاتِ الْجَدِيدِ الْمُكَوَّنِ مِنْ عَشَرَةِ أَفْيَالٍ، مِنْ بَيْنِهِمُ الْفِيلُ الأَبْيَضُ وَهُوَ أَعْظَمُ أَفْيَالِ فَارِسَ فِي الْحَرْبِ، وَوَصَلَتْ أَخْبَارُهُ إِلَى أَبِي عُبَيْدٍ وَهُوَ فِي أَطْرَافِ صَحْرَاءِ الْعِرَاقِ، تَوَجَّهَ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَسْكَرَ بِهِ عَلَى النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِنَهْرِ الْفُرَاتِ؛ انْتِظَارًا لِقُدُومِ جَيْشِ الْفُرْسِ.

وَجَاءَ الْفُرْسُ وَوَقَفُوا عَلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لِلنَّهْرِ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا جِسْرٌ يُوَصِّلُ بَيْنَ الضَّفَّتَيْنِ، وَأَرْسَلَ قَائِدُهُمْ بَهْمَنُ جَاذَوَيْهِ رَسُولًا إِلَى أَبِي عُبَيْدٍ يَقُولُ لَهُ:

- إِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ .. وَإِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا .

تَشَاوَرَ قَادَةُ الْجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ فِي عَرْضِ الْفُرْسِ، اتَّفَقَ الْقَادَةُ عَلَى أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَعْبُرُوا هُمْ، فَأَرْضُ الْمَعْرَكَةِ شَرْقَ الْفُرَاتِ أَوْسَعُ وَأَسْهَلُ، وَتَسْمَحُ لَهُمْ بِأُسْلُوبِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ الَّذِي يُجِيدُونَ. أَمَّا إِذَا عَبَرُوا إِلَيْهِمْ فَسَيَكُونُونَ مَحْصُورِينَ بَيْنَ نَهْرَيْنِ.

لَمْ يَسْتَمِعْ أَبُو عُبَيْدٍ لِرَأْيِ قَادَةِ الْجَيْشِ، وَرَأَى أَنْ يَعْبُرَ الْمُجَاهِدُونَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ:

- لَا يَكُونُوا أَجْرَأَ مِنَّا عَلَى الْمَوْتِ، نَعْبُرُ نَحْنُ إِلَيْهِمْ.

حَاوَلَ الرِّجَالُ أَنْ يَجْعَلُوا أَبَا عُبَيْدٍ يَتَرَاجَعُ عَنْ رَأْيِهِ .. حَاوَلُوا أَنْ يُفْهِمُوهُ أَنَّ فِي عُبُورِهِمْ خَطَرًا عَلَيْهِمْ، لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى رَأْيِهِ وَقَالَ:

- وَاللهِ لَا أَتْرُكُهُمْ يَعْبُرُونَ وَيَقُولُونَ: إِنَّا جَبُنَّا عَنْ لِقَائِهِمْ.

سَمِعَ الْمُجَاهِدُونَ أَمْرَ قَائِدِهِمْ ، وَعَبَرُوا إِلَى النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْفُرَاتِ، وَصَارَ الْجَيْشَانِ فِي الْمُوَاجَهَةِ، عَشَرَةُ آلَافِ مُجَاهِدٍ يُوَاجِهُونَ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أَشْرَسِ فُرْسَانِ الْفُرْسِ يَتَقَدَّمُهُمْ عَشَرَةُ أَفْيَالٍ مُدَرَّبَةٍ عَلَى الْقِتَالِ.

رَاحَتِ الْفِيلَةُ تَتَقَدَّمُ إِلَى الأَمَامِ بَيْنَمَا الْمُجَاهِدُونَ يَتَرَاجَعُونَ، وَحِينَ صَارَ النَّهْرُ قَرِيبًا مِنْ ظَهْرِهِمْ، تَوَقَّفُوا انْتِظَارًا لِهُجُومِ الْفِيلَةِ وَقِتَالِهَا، ثُمَّ انْدَفَعُوا لِقِتَالِهَا، فَزِعَتْ خُيُولُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُؤْيَةِ الأَفْيَالِ وَجَمَحَتْ بِمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْفُرْسَانِ، وَعَادَتْ إِلَى الْوَرَاءِ وَهِيَ تُطِيحُ بِمَنْ أَمَامَهَا مِنَ الْمُشَاةِ.

صَاحَ أَبُو عُبَيْدٍ يَأْمُرُ الْفُرْسَانَ بِالتَّخَلِّي عَنِ الْخُيُولِ وَأَنْ يُحَارِبُوا وَهُمْ مُشَاةٌ، وَرَاحَتِ الْفِيلَةُ تُهَاجِمُ الْمُسْلِمِينَ بِضَرَاوَةٍ، تُطِيحُ بِهِمْ فِي الْهَوَاءِ بِأُنُوفِهَا، وَتُمَزِّقُ صُفُوفَهُمْ وَتُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ، فَصَاحَ أَبُو عُبَيْدٍ يَطْلُبُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَنْ يَلْتَفُّوا حَوْلَ الْفِيلَةِ وَأَنْ يَقْطَعُوا أَحْزِمَةَ بُطُونِهَا؛ حَتَّى يَقَعَ مَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْقَادَةِ، وَكَانَ هُوَ أَوَّلَ مَنْ نَفَّذَ مَا أَمَرَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَاتَّجَهَ نَاحِيَةَ الْفِيلِ الأَبْيَضِ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ بِسَيْفِهِ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ خُرْطُومَهُ.. وَرَاحَ الْفِيلُ يَتَحَاشَى ضَرَبَاتِ السَّيْفِ وَيُهَاجِمُ أَبَا عُبَيْدٍ حَتَّى

اسْتَطَاعَ أَنْ يُوقِعَ بِهِ وَيَدُوسَهُ تَحْتَ أَقْدَامِهِ.

صَارَ الأَمْرُ صَعْبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَاصَّةً وَقَدِ اسْتُشْهِدَ قَائِدُهُمْ، فَبَدَأُوا فِي الْفِرَارِ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ يَعْبُرُونَ الْجِسْرَ إِلَى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ.

تَوَلَّى الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ قِيَادَةَ الْجَيْشِ.. وَرَاحَ يُحَاوِلُ أَنْ يُنَظِّمَ صُفُوفَ جَيْشِهِ وَيَدْعُوَ الْفَارِّينَ لِلثَّبَاتِ فِي الْقِتَالِ. فَأَسْرَعَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ثَقِيفٍ إِلَى الْجِسْرِ وَقَطَعَ بَعْضَ أَوْصَالِهِ حَتَّى لَا يَصْلُحَ لِلْعُبُورِ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَصِيحُ فِي الْمُقَاتِلِينَ الْهَارِبِينَ وَيَقُولُ لَهُمْ:

- مُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أُمَرَاؤُكُمْ، أَوِ اظْفَرُوا بِالنَّصْرِ.

وَكَانَتْ فُرْصَةَ الْفُرْسِ.. انْقَضُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُونَ فِيهِمْ بِشَرَاسَةٍ، وَاضْطُرَّ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ أَنْ يَقُودَ الْمُجَاهِدِينَ إِلَى الانْسِحَابِ مِنْ أَمَامِ هَجَمَاتِ الْفُرْسِ الْعَنِيفَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ الضَّيِّقِ، وَأَمَرَ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُصْلِحَ الْجِسْرَ، ثُمَّ صَاحَ يَقُولُ:

- لِيَقِفْ أَشْجَعُ الْمُسْلِمِينَ لِحِمَايَتِهِ.

أَسْرَعَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو التَّمِيمِيُّ وَزَيْدُ الْخَيْلِ وَقَيْسُ بْنُ سُلَيْطٍ إِلَى حِمَايَةِ الْجِسْرِ؛ حَتَّى لَا يَقْطَعَهُ الْفُرْسُ وَيَنْهَارَ بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَعْبُرُونَهُ.

وَبَدَأَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْعُبُورِ إِلَى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ، يَتَرَاجَعُونَ إِلَى الْوَرَاءِ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى الْجِسْرِ فَيَعْبُرُوا، وَكَانَ آخِرَ مَنْ عَبَرَ الْجِسْرَ هُوَ الْمُثَنَّى ابْنُ حَارِثَةَ فَقَدْ ظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى اللَّحْظَةِ الأَخِيرَةِ.. يَتَرَاجَعُ إِلَى الْوَرَاءِ وَالْفُرْسُ مِنْ أَمَامِهِ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ عَبَرَ إِلَى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ لِلنَّهْرِ، قَطَعَ الْجِسْرَ عَلَى الْفُرْسِ؛ حَتَّى

لَا يَعْبُرُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ.

كَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ أَوَّلَ مَعْرَكَةٍ يَنْهَزِمُ فِيهَا الْمُجَاهِدُونَ، وَانْتَهَتْ وَلَمْ يَبْقَ مَعَ الْمُثَنَّى سِوَى أَلْفَيْنِ فَقَطْ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ. وَقَدِ اسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافِ شَهِيدٍ، بَيْنَ قَتِيلٍ فِي الْمَعْرَكَةِ وَغَرِيقٍ فِي النَّهْرِ، وَفَرَّ مِنْهُمْ أَلْفَانِ إِلَى عُمْقِ الصَّحْرَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَاكِيًا؛ فَلَمْ يَعْتَادُوا الْفِرَارَ قَطُّ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، لَكِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِمْ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِرَارًا.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي لِلْمَعْرَكَةِ، وَبَعْدَ أَنِ انْسَحَبَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا يَقْتُلُ بِهِ فَرْحَةَ النَّصْرِ فِي قُلُوبِ الْفُرْسِ، وَيُعِيدَ بِهِ رُوحَ الْقِتَالِ وَالانْتِصَارَاتِ إِلَى قُلُوبِ الْمُجَاهِدِينَ.

أَخَذَ الْمُثَنَّى مَجْمُوعَةً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ وَرَاحَ بِهِمْ نَاحِيَةَ أُلَيْسَ، وَهُنَاكَ.. وَجَدَ فِرْقَةً صَغِيرَةً مِنَ الْفُرْسِ مِنْ بَيْنِهَا اثْنَانِ مِنْ أَكْبَرِ قُوَّادِ الْفُرْسِ، وَهُمَا جَابَانُ، وَمُرَادْنَشَاهْ قَدْ خَرَجُوا لِلتَّنَزُّهِ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ فَرَحًا بِانْتِصَارِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَدْ فَرُّوا مِنَ الْعِرَاقِ بِلَا رَجْعَةٍ، وَإِذَا هُمْ يُفَاجَأُونَ بِقُوَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تُحِيطُ بِهِمْ وَتُقَاتِلُهُمْ حَتَّى لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَعَلَى صِغَرِ هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ، فَقَدْ أَحْدَثَتْ هِزَّةً عَنِيفَةً فِي نُفُوسِ الْجَيْشِ الْفَارِسِيِّ الَّذِي كَانَ فُرْسَانُهُ يَتَغَنَّوْنَ بِأَنَّهُمْ قَدْ قَضَوْا عَلَى الْجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ وَلَنْ يَتَمَكَّنُوا أَبَدًا مِنَ الدُّخُولِ فِي أَيَّةِ مَعَارِكَ مَعَهُمْ، فَإِذَا بِهِمْ يَقْتُلُونَ اثْنَيْنِ مِنْ أَكْبَرِ قُوَّادِهِمْ فِي مَعْرَكَةٍ قَصِيرَةٍ رَفَعَتْ مِنْ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ، وَعَادُوا مَرَّةً ثَانِيَةً يَذُوقُونَ طَعْمَ الانْتِصَارَاتِ.

مَعْرَكَةُ الْبُوَيْبِ

اسْــتَطَاعَ الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُهَدِّئَ مِنْ لَوْعَــةِ الْعَائِدِينَ مِنْ مَعْرَكَةِ الْجِسْــرِ وَحُزْنِهِمْ، وَأَنْ يُطَمْئِنَ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَيْسُــوا فَارِّينَ، وَاسْــتَطَاعَ أَيْضًا أَنْ يُحَفِّزَهُــمْ لِلْقِتَالِ مَرَّةً أُخْرَى، فَعَادُوا إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ؛ لِيُصْبِحَ جَيْشُــهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ.

وَنَادَى الْخَلِيفَةُ لِلْجِهَادِ فِي سَــبِيلِ اللهِ، بَعَثَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ رَسُــولًا يَأْمُرُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا كُلُّ مَنْ يَسْتَطِيعُ الْحَرْبَ لِقِتَالِ الْفُرْسِ، فَأَتَاهُ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بِأَلْفَيْنِ مِنْ قَبِيلَةِ بَجِيلَةَ الْيَمَنِيَّةِ، فَأَرْسَلَهُمْ إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ فِي الْعِرَاقِ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ تَجَمَّعَ لَدَيْهِ أَلْفَانِ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الْقَادِمِينَ مِنَ الْمَعَارِكِ، فَأَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِ أَيْضًا.

فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ يَنْتَظِرُ الْمَدَدَ الْقَادِمَ مِنَ الْمَدِينَةِ، كَانَ يُرْسِــلُ عُيُونَهُ تَرْصُدُ تَحَرُّكَاتِ الْفُرْسِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ كَانَ الْفُرْسُ يَرْصُدُونَ الإِمْدَادَاتِ الَّتِي تَأْتِي إِلَى الْمُثَنَّى وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ جَلَدِ الْمُسْلِمِينَ وعَزِيمَتِهِمْ.

عَادَتْ عُيُونُ الْمُثَنَّى بْــنِ حَارِثَةَ تُخْبِرُهُ بِأَنَّ جَيْشَ الْفُرْسِ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَدَائِنِ فِي سَــبْعِينَ أَلْفَ فَارِسٍ، وَمَعَهُمْ ثَلَاثَةُ أَفْيَالٍ يَقُودُهُمْ مِهْرَانُ بْنُ بَاذَانَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْحِيرَةِ لِقِتَالِهِ.

تَعَلَّمَ الْمُثَنَّى الدَّرْسَ مِنْ مَعْرَكَةِ الْجِسْرِ، وَاخْتَارَ هُوَ مَكَانَ الْمَعْرَكَةِ، أَرْسَلَ إِلَى الْمَدَدِ الْقَادِمِ لَهُ بِأَنْ يُغَيِّرَ وِجْهَتَهُ إِلَى الْبُوَيْبِ فَهُنَاكَ سَيَلْتَقُونَ، وَفِي الْبُوَيْبِ صَارَ عَدَدُ

الْجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ ثَمَانِيَةَ آلَافِ مُجَاهِدٍ.

عَسْكَرَ الْمُثَنَّى بِالْجَيْشِ فِي الْبُوَيْبِ، بِحَيْثُ صَارَ نَهْرُ الْفُرَاتِ أَمَامَهُ، وَنَهْرُ الْبُوَيْبِ الْمُتَفَرِّعُ مِنْهُ عَلَى يَسَارِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ كَانَتِ الْبُحَيْرَةُ الَّتِي يَصْنَعُهَا نَهْرُ الْبُوَيْبِ.

عَلَى الْفُرَاتِ كَانَ جِسْرٌ يَرْبِطُ بَيْنَ ضِفَّتَيْهِ، كَأَنَّ التَّارِيخَ يُعِيدُ إِلَى الذَّاكِرَةِ مَعْرَكَةَ الْجِسْرِ، لَكِنَّ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ تَنَاسَاهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَقَعْ، وَرَاحَ يُعِدُّ صُفُوفَ جَيْشِهِ، جَمَعَ رِجَالَ كُلِّ قَبِيلَةٍ مَعَ بَعْضِهِمْ وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا مِنْهُمْ، وَقَسَّمَ الْجَيْشَ إِلَى مَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرَةٍ وَوَسَطٍ، وَجَعَلَ عَلَى كُلٍّ مِنْهَا قَائِدًا، وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَضَعَ فِرْقَةً فِي الْمُؤَخِّرَةِ احْتِيَاطًا لَا تُشَارِكُ فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا.

وَوَقَفَ الْمُجَاهِدُونَ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ، وَالْمُثَنَّى يَسِيرُ بَيْنَ صُفُوفِهِمُ الْمُتَرَابِطَةِ كَصُفُوفِ الصَّلَاةِ، يُحَفِّزُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى النَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ بِهَا الشُّهَدَاءَ.

وَجَاءَ جَيْشُ الْفُرْسِ وَوَقَفَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِنَهْرِ الْفُرَاتِ، وَأَرَادَ قَائِدُهُ أَنْ يَسْتَدْرِجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ كَمَا فَعَلَ فِي مَعْرَكَةِ الْجِسْرِ، لَكِنَّ الْمُثَنَّى كَانَ قَدْ وَعَى الدَّرْسَ جَيِّدًا، وَاسْتَعَدَّ لِلِّقَاءِ.. طَلَبَ أَنْ يَعْبُرُوا هُمْ.

وَبَدَأَ الْفُرْسُ عُبُورَ الْجِسْرِ، إِلَى الْمِصْيَدَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُ الْمُثَنَّى، تَتَقَدَّمُهُمُ الأَفْيَالُ الثَّلَاثَةُ الْمُدَرَّبَةُ عَلَى الْقِتَالِ، وَمِنْ خَلْفِهَا الْفُرْسَانُ وَهُمْ يَصِيحُونَ صَيْحَاتٍ مُزْعِجَةً؛ حَتَّى يُوقِعُوا الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُثَنَّى بَيْنَ

الصُّفُوفِ يَطْلُبُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الصَّمْتَ وَالْهُدُوءَ حَتَّى يَسْمَعُوا مِنْهُ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ.

نَظَرَ الْمُثَنَّى إِلَى صُفُوفِ الْفُرْسِ فَوَجَدَهَا مُتَلَاحِمَةً بِشَكْلٍ قَوِيٍّ، رَأَى أَنْ يُفَرِّقَهَا حَتَّى يَتِمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَيْهَا، فَصَاحَ اللهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا وَانْدَفَعَ يَقُودُ فُرْسَانَ الْوَسَطِ يَخْتَرِقُونَ صُفُوفَ الْفُرْسِ كَالْفُهُودِ الْبَيْضَاءِ، حَتَّى اسْتَطَاعُوا أَنْ يَفْصِلُوا الْجَيْشَ الْفَارِسِيَّ إِلَى جُزْأَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ عَنْ بَعْضِهِمَا تَمَامًا، وَصَاحَ اللهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا فَانْدَفَعَ جُنُودُ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ عَلَى نِصْفَيِ الْجَيْشِ الْفَارِسِيِّ وَهُمْ يُهَلِّلُونَ وَيُكَبِّرُونَ بَيْنَمَا سُيُوفُهُمْ وَرِمَاحُهُمْ تُقَطِّعُ الرِّقَابَ وَتَخْتَرِقُ الصُّدُورَ.

وَقَاتَلَ الْفُرْسُ قِتَالًا شَرِسًا حَتَّى رَأَى جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيُّ قَائِدَهُمْ وَهُوَ يُقَاتِلُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ حِصَانٍ وَرْدِيِّ اللَّوْنِ، فَانْدَفَعَ نَاحِيَتَهُ وَغَرَسَ سَيْفَهُ فِي قَلْبِهِ فَخَرَّ صَرِيعًا إِلَى الأَرْضِ.

حِينَ رَأَى الْفُرْسُ مَصْرَعَ قَائِدِهِمْ، انْهَارَتْ مَعْنَوِيَّاتُهُمْ، وَتَرَاخَتْ سَوَاعِدُهُمْ وَصَارَتْ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى الْقِتَالِ، وَبَدَأُوا فِي الْفِرَارِ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ.

أَسْرَعَ الْمُثَنَّى مُخْتَرِقًا فُلُولَ الْفُرْسِ الْهَارِبَةَ كَالسَّهْمِ، يَسْبِقُ خُيُولَهُمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْجِسْرِ، وَقَامَ بِتَقْطِيعِ حِبَالِهِ فَانْهَارَ، وَلَمْ يَعُدْ أَمَامَ الْفُرْسِ الْمَهْزُومِينَ طَرِيقٌ لِلْهَرَبِ!

دَبَّ الْفَزَعُ وَالذُّعْرُ فِي قُلُوبِ الْفُرْسِ، وَأَصَابَهُمْ مَسٌّ مِنَ الْجُنُونِ، فَلَا مَهْرَبَ لَهُمْ وَلَا مَفَرَّ مِنْ سُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ، الَّتِي رَاحَتْ تَحْصُدُ رِقَابَهُمْ كَالنَّارِ حِينَ تَلْتَهِمُ الْهَشِيمَ! حَتَّى قَتَلَ الْمُجَاهِدُونَ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ عَبَدَةِ النَّارِ، وَقَدْ هَرَبَ فِي طَرِيقِ الْمَدَائِنِ مَنِ اسْتَطَاعَ الْفِرَارَ مِنْ فَوْقِ الْجِسْرِ قَبْلَ أَنْ يَهْدِمَهُ الْمُثَنَّى، وَقَدْ صَارَتْ رُوحُهُمُ الْمَعْنَوِيَّةُ إِلَى الْحَضِيضِ .

وَبِالرَّغْمِ مِنَ الانْتِصَارِ الْمُدَوِّي لِلْمُثَنَّى إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ فِي قَطْعِ حِبَالِ الْجِسْرِ وَمَنْعِ الْفُرْسِ مِنَ الْهَرَبِ، وَرَاحَ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ عَلَى فِعْلَتِهِ، فَمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ الْجِسْرَ وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ الْفِرَارِ حَتَّى يُقْتَلُوا، كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتْرُكَهُمْ يَهْرُبُونَ ثُمَّ يُطَارِدَ فُلُولَهُمْ.

جَمَعَ الْمُثَنَّى جَيْشَــهُ الْمُنْتَصِرَ، وَاعْتَرَفَ بِالْخَطَإِ الَّــذِي وَقَعَ فِيهِ أَمَامَهُمْ ، غَيْرَ مُتَعَالٍ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ:

ـ إِنَّهَا كَانَتْ زَلَّةً، فَلَا تَعُودُوا أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى مِثْلِهَا.

هَدَأَتْ نَفْسُ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيِّ، وَكَفَّتْ عَنْ عِتَابِهِ وَلَوْمِهِ بَعْدَ أَنِ اعْتَرَفَ لِلْجَيْشِ بِمَا أَخْطَأَ، وَأَرْسَلَ خَمْسَ سَرَايَا، لِكُلٍّ مِنْهَا قَائِدٌ، يَتَتَبَّعُونَ الْفَارِّينَ.

انْتَشَرَتِ السَّرَايَا الْخَمْسُ فِي الأَرْضِ الَّتِي بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ، وَفَتَحُوهَا جَمِيعًا إِلَّا مِنْ قَلْعَةٍ تَحَصَّنَ فِيهَا عَدَدٌ مِنَ الْفُرْسِ وَرَفَضُوا الاسْتِسْلَامَ. وَحِينَ بَلَغَ الْمُثَنَّى خَبَرُ هَذِهِ الْقَلْعَةِ أَمَرَ ســرَايَاهُ بِحِصَارِهَا وَقِتَالِ مَنْ فِيهَا ، وَلَمْ يَطُلِ الْحِصَارُ كَثِيرًا حَتَّى خَرَجَ الْفُرْسُ لِتَسْتَقْبِلَهُمْ سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ، وَتُنْهِيَ حَيَاتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَتُرْسِلَ بِهِمْ إِلَى حَيَاتِهِمْ فِي نَارِ السَّعِيرِ .

وَبِالنَّصْرِ فِي هَــذِهِ الْمَعْرَكَةِ، صَارَتِ الْمِنْطَقَةُ كُلُّهَا مَا بَيْنَ الْأُبُلَّةِ فِي الْجَنُوبِ إِلَى دَوْمَةِ الْجَنْدَلِ فِي الشَّمَالِ، وَمِنَ الشَّرْقِ حَتَّى الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ، صَارَتْ هَذِهِ الأَرْضُ كُلُّهَا تَحْتَ سَــيْطَرَةِ الْمُسْــلِمِينَ. وَقَدْ ظَنَّ عَبَدَةُ النَّارِ بَعْدَ مَوْقِعَةِ الْجِسْرِ أَنَّهُ لَنْ تَقُومَ قَائِمَةٌ لِلْجَيْشِ الإِسْــلَامِيِّ مَرَّةً ثَانِيَةً.. لَكِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ يُرِيدُ النَّصْرَ لِمَنْ يُقَاتِلُونَ لِنَشْرِ دِينِهِ الْحَنِيفِ.

أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الكِتَابِ

س1 : كَيْفَ تَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى؟

س2 : لِمَاذَا عَاتَبَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ؟

س3 : مَا الدُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ؟ وَكَيْفَ كَانَ تَوْزِيعُ الْغَنَائِمِ فِيهَا؟

س4 : كَمْ كَانَ عَدَدُ الْمُقَاتِلِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ؟

س5 : هَلِ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ؟ وَلِمَاذَا؟

س6 : مَنْ صَاحِبُ فِكْرَةِ الْخَنْدَقِ؟ وَمَا السَّبَبُ فِي حَفْرِهِ؟ وَكَيْفَ تَمَّ حَفْرُهُ؟

س7 : كَيْفَ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ دُونَ قِتَالٍ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ؟

س8 : مَتَى وَقَعَتْ غَزْوَةُ مُؤْتَةَ؟ وَمَنْ قُوَّادُهَا الَّذِينَ عَيَّنَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ؟

س9 : مَا الْحِيلَةُ الَّتِي أَلْقَتْ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الرُّومِ فِي مُؤْتَةَ؟ وَمَنْ صَاحِبُهَا؟

س10: مَتَى رَأَى الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهُ آنَ الْأَوَانُ لِفَتْحِ مَكَّةَ؟ وَلِمَاذَا؟

س11: هَلْ عَاشَ الرَّسُولُ ﷺ فِي مَكَّةَ بَعْدَ فَتْحِهَا؟ وَلِمَاذَا؟

س12: مَنِ الَّذِي قَتَلَ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ وَمَتَى قَتَلَهُ؟ وَكَيْفَ كَفَّرَ عَنْ ذَنْبِهِ هَذَا بَعْدَ إِسْلَامِهِ؟

س13: كَمْ عَدَدُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ؟ وَمَا الْمَعَارِكُ الَّتِي خَاضَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي مُحَارَبَتِهِمْ؟

س14: كَمْ كَانَ عَدَدُ الْمُقَاتِلِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ ذَاتِ السَّلاسِلِ؟

س15: كَيْفَ أَدْرَكَ الْفُرْسُ أَنَّ فَتْحَ الْمُسْلِمِينَ لِبِلَادِهِمْ جَاءَ خَيْرًا عَلَيْهِمْ؟

س16: كَيْفَ تَحَقَّقَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ الأُبُلَّةَ؟

س17: مَا سَبَبُ أَهَمِّيَّةِ مَدِينَةِ الْأُبُلَّةِ عِنْدَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؟

س18: مَـا الْخِلَافُ الَّذِي وَقَعَ فِي جَيْشِ الْفُرْسِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى الْمَذَارِ؟

س19: كَيْفَ فَقَدَ جَيْشُ الْفُرْسِ قَادَتَهُ فِي مَعْرَكَةِ الْمَذَارِ؟

س20: أُذْكُرْ أَسْبَابَ النَّصْرِ عَلَى الْفُرْسِ فِي مَعْرَكَةِ الْمَذَارِ.

س21: مَا الْخُطَّةُ الَّتِي اسْـتَخْدَمَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي قِتَالِ الْحُشُودِ الْكَبِيرَةِ مِنْ جَيْشِ الْفُرْسِ فِي مَعْرَكَةِ الْوَلَجَةِ؟

س22: مَا الْأَسْبَابُ الَّتِي جَعَلَتْ جَيْشَ الْفُرْسِ يَثْبُتُ أَمَامَ هَجَمَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي بِدَايَةِ مَعْرَكَةِ الْوَلَجَةِ؟

س23: مَا الدُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ مَعْرَكَةِ الْمَقَرِّ؟

س24: مَا الْخُطَّةُ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِفَتْحِ حُصُونِ الْحِيرَةِ؟

س25: لِمَاذَا رَفَضَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ شُرُوطَ الصُّلْحِ الَّتِي أَرْسَلَهَا الْقَائِدُ الْفَارِسِيُّ الْمُتَحَصِّنُ دَاخِلَ مَدِينَةِ الْأَنْبَارِ؟

س26: كَيْفَ اسْتَطَاعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَلَّ مُشْكِلَةِ الْخَنْدَقِ المَائِيِّ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلى مَدِينَةِ الْأَنْبَارِ؟

س27: مَاذَا وَجَدَ جَيْشُ عُقَّةَ عِنْدَمَا دَخَلَ حِصْنَ مَدِينَةِ عَيْنِ التَّمْرِ؟

س28: لِمَاذَا رَفَضَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الصُّلْحَ مَعَ الْعَرَبِ الْمُتَنَصِّرَةِ؟

س29: لِمَاذَا دَعَا أُكَيْدِرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى اجْتِمَاعٍ؟ وَمَاذَا قَالَ لِقَادَتِهِ فِي هَذَا الاجْتِمَاعِ؟

س30: هَلِ امْتَثَلَ الْعَرَبُ الْمُتَنَصِّرَةُ لأَنْ يَكُونُوا فِي حِمَايَةِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ؟ وَلِمَاذَا؟

س31: مَا السِّلَاحُ الْجَدِيدُ الَّذِي اخْتَارَهُ بَهْمَنُ جَاذَوَيْهِ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؟

س32: لِمَاذَا انْهَزَمَ الْمُجَاهِدُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَعْرَكَةِ الْجِسْرِ؟ وَمَا الدُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْهَا؟

س33: كَيْفَ شَعَرَ الْمُسْلِمُونَ مَرَّةً ثَانِيَةً بِطَعْمِ الانْتِصَارِ عَلَى الْفُرْسِ بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجِسْرِ؟

س34: مَا الْخُطَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا الْمُثَنَّى لِحَرْبِ الْفُرْسِ فِي مَعْرَكَةِ الْبُوَيْبِ؟

س35: مَا الْخَطَأُ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ فِي مَعْرَكَةِ الْبُوَيْبِ؟ وَهَلِ اعْتَرَفَ بِهَذَا الْخَطَإِ؟ وَمَاذَا قَالَ لِقَادَتِهِ؟

س36: مَا الَّذِي تَحَقَّقَ لِلْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِهِمْ فِي مَعْرَكَةِ الْبُوَيْبِ؟